





ڤولتير

تأليف

اندريه موروا

ترجمه الدكتور محمد غلاب

راجعه الدكتور محمد محمد القصاص

الألف كتاب

(٣٢٩)

نصوص مختارة من ڤولتير

تقديم

أندريه موروا

ترجمه

الدكتور محمد غلاب

راجعه

الدكتور محمد محمد القصاص

ملتزم الطبع والنشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

[illegible] القاهرة ت ٤١١٤٥٥

هذه ترجمة كتاب :

LES PAGES IMMORTELLES

De

VOLTAIRE

تقـــديم :

ANDRÉ MAUROIS

الألف كتاب (٣٢٩)

نصوص مختارة
من
ڤولتير

باشراف ادارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم
الاقليم الجنوبي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

تقديم

ڤولتير Voltaire

لما كان ڤولتير قد ولد فى عهد لويس الرابع عشر، وتلقى تربيته عن الآباء اليسوعيين ، فقد اتسم بجميع التأثرات الكلاسيكية . ولكنه لما كان — من حيث مولده — من الطبقة البرجوازية ، فقد تألم من وقاحة ذوى الامتيازات . ولما كان قد نفى إلى إنجلترا ، فإنه صار فيها من الأحرار دون أن يتخلى عن أن يكون من المحافظين . وكثيرا ما تمنى أن تنال فرنسا أنظمة إنجلترا السياسية ، وكذلك الحرية الدينية ، وقد نجح فى ذلك وساهم أكثر من أى شخص آخر فى بعث الثورة التى لو قدر له أن يشاهدها لاستهجن عنفها .

قيل إنه إذا كان القرن السابع عشر ينسب إلى لويس الرابع عشر ، فإن القرن الثامن عشر ينسب إلى ڤولتير . وفى الحق أنه لا يوجد أى عقل يمثل ذلك العصر الساطع الحى أفضل من عقله .

كان القرن الثامن عشر هـــو القرن الذى نهضت فيه الطبقة

المتوسطة أو البرجوازية ، وڤولتير أحد أثرياء هذه الطبقة . وكان أيضاً القرن الذى نمت فى أثنائه علوم الطبيعة تبعاً لمنهج جديد . وكان ڤولتير مشغوفا بجميع العلوم . وأخيرا كان القرن الذى خضعت فيه الأنظمة الدينية والملكية والأرستقراطية لتحول تام ، وفولتير هو مصلح كبير . أضف إلى ذلك أنه يدافع عن المذاهب الجديدة فى حمية لا تعرف الفتور ، وأنه يعبر عن أفكار عصره بأوضح الطرق وأكثرها تسلية . وهذا يكفى لتفسير مجده الأدبى . أما إذا أردنا تعليل مجده السياسى والشعبى ، فإنه يتحتم علينا أن نضيف إلى دراسة آثاره عرضا موجزا لحياته .

— ١ —

فى سنة ١٦٩٤ ولد فى أسرة مسجل عقود باريس ، طفل ضعيف التكوين أطلق عليه اسم « فرنسوا ـ مارى أرويه » سنرى أنه سيسمى نفسه فيما بعد السيد دى ڤولتير . وينبغى أن نسجل هنا أن الضعف الجسمى عند ڤولتير ، كان دائما مرتبطا بمزاج حاد ونشيط بصورة تدعو إلى الإعجاب ؛ وقد ظل أكثر من ثمانين سنة يعلن أنه فى عداد الأموات ، ولكن آلامه لم تمنعه قط من أن يعمل ويقاتل ويكتب ويسخر .

كان ذلك فى العصر الذى اتجهت فيه البرجوازية الإنجليزية نحو المذهب البيوريتـــانى[1] بينما اتجهت البرجوازية الفرنسية نحو الجانسينية[2] . وهكذا قام على تربية ڤولتير أب تقى إلى جانب أخ متعصب . وقد بعث ذلك فى نفسه الامتعاض من الطقوس الدينية . ومع ذلك فقد علمه والده عند الآباء اليسوعيين ، ولكن إذا كان هؤلاء الأخيرون قد علموه تذوق الآداب الكلاسيكية بصورة جديرة بالإعجاب ، فإنهم لم ينجحوا يقينا فى أن يلهموه احترام الدين .

(١و٢) البيوريتانية هى شيعة بروتستانتية ، والجانسينية شيعة كاثوليكية وكلتاهما تتشابهان فى الحماسة العقيدية والقسوة الأخلاقية . وكان بين هذه الأخيرة واليسوعيين خصومة وكفاح فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

(المترجم)

ماذا عسى أن يصنع بهذا الطفل الموهوب ؟ لقد حاول الوالد أن يجعل منه رجلا من رجال القانون ، ولكن الابن كان لديه مطامع أخرى . فقد كان يعرف عددا من كبار الأشراف ، وقد أراد أن يكون تابعا لأحد السفراء ، وسافر فعلا إلى هولاندا . وهناك اقترف عدة حماقات ، وحاول اختطاف فتاة أغرم بها ، فأعيد إلى فرنسا . وكان ذلك فى عهد الوصاية (على عرش لويس الخامس عشر) وكانت الحكومة ضعيفة عديمة الهيبة ، وكانت لذعات الهجاء وغمزات الأناشيد تتوالى كأنها الأمطار .

كان ڤولتير أحد الذين ساهموا فى هذه الكتابة وعرف ذلك عنه . وكان يكفى إذ ذاك إصدار خطاب « رسالة تحمل مختوما » للزج بأى رجل فى غياهب السجون ، وفجأة وجد ڤولتير نفسه نزيل الباستيل لمـــدة عام . وكان ذلك درسا قاسيا دفعه إلى التأمل فى أخطار الاستبداد . على أن نظام الباستيل كان لينا ، وكان المساجين فيه يستطيعون أن يكتبوا ، فألف ڤولتير هناك قصائد ومآسى ؛ وما كاد يخرج من سجنه حتى مثلت مأساته « أوديب » فظفر بالشهرة .

إنه لشىء ساحر أن يفوز المرء بالمجد فى سن الثلاثين . وقد استمتع ڤولتير بذلك ، وعاش فى مجتمع العظماء ، وأحب عدة ممثلات ، وصار من نجوم المجتمع . وبينا هو على هذه الحال

إذ حدث حادث وحشى أيقظه من حلمه ، وقذف به إلى أشد الطرق وعورة . وذلك أن الفارس روهان شابو أمر خدمه بضربه بالعصى بسبب رد فيه جرأة ؛ وحاول ڤولتير أن يقتص لنفسه فأراد مبارزة من أهانه . ولكنه كان من أبناء الشعب ، فزج به آل روهان فى سجن الباستيل . وعندما غادر سجنه أعلن الحرب على المجتمع الذى يسمح بمثل هذا الظلم . وهنا ولد ڤولتير جديد ، وارتحل إلى إنجلترا فغيرت إقامته فيها أفكاره ، إذ رأى هناك أن البرجوازيين يدعون لأنفسهم الحق فى جميع ألوان التكريم وأن الحرية لا تبدو متعارضة مع النظام ، وأن الدين يسمح بالفلسفة . ولقد ساهمت كثرة الفرق البروتستانتية فى زيادة ارتيابه ، وزودته مطالعة مؤلفات لوك بفلسفة معينة ، ومطالعة سويفت بنموذج يتبعه ، ومطالعة نيوتون بمذهب على ، وألهمه الباستيل الرغبة فى مجتمع جديد ، وقد كشفت له انجلترا عما يمكن أن يكون عليه هذا المجتمع .

وعندما عاد إلى فرنسا فى سنة ١٧٢٩ ، لم يلبث أن عثر فيها من جديد على المجد والثراء ، فقد انتصرت مآسيه ، وازدهرت مشروعاته التجارية ، ولكن إدراكه للعالم كان قد تغير كله ، وسرعان ما بسط ذلك بصورة خفية فى مؤلفه «الرسائل الفلسفية عن الإنجليز » . وكان عن طريق وصفه للأنظمة الإنجليزية

ينتوى أن يوجه الفرنسيين إلى التأمل فى آرائهم الدينية والسياسية . ولقد رسم بصورة غير مباشرة فى هذا المؤلف هيكلا أوليا لمذهبه يتلخص فى الحريات المدنية والدينية ، وفى أهمية التجارة وقيمة العلم . ولقد صار — بفضل هذا الكتاب — حامى الطبقات المتوسطة فى الكفاح الذى كان وشيك الوقوع . وفهمت الشرطة ذلك فتعقبت الكتاب الذى أحرق بحكم من قضاة البرلمان فى قصر العدالة . أما المؤلف فلم يكن له بد من أن يفر ، ولم يلبث أن وجد ملجأ فى قصر سيريه الذى تملكه صديقته المعجبة به المركيزة دو شاتيليه «Marquise du Chatelet» . وكانت هى نفسها عالمة . وفى أثناء علاقتهما التى دامت ستة عشر عاما ، درسا معاً علوم الفلك والميكانيكا والكيميا بل والتاريخ ، لأنه ألف من أجلها كتابا فى التاريخ العام جعل عنوانه « مقال فى العادات » .

كانت مدام دوشاتيليه — ككل النساء الكلفات بعظماء الرجال — تتمنى أن ترى محبوبها معترفا به فى المجتمع الراقى ، فحاولت أن تصلح بينه وبين القصر . وفى سنة ١٧٤٦ نجحت فى ضمه عضواً فى المجمع اللغوى الفرنسى ، وأخذ المحبان يتلألآن فى بلاط دوقة مين الصغير[١] ومن أجل إرضاء هذه الدوقة ، جعل يؤلف بعض

---

(١) الدوقة دومين هى أميرة ملكية ، وهى زوجة دوق دومين الابن غير الشرعى للملك لويس الرابع عشر ، وكانت هذه الأميرة الطموحة حامية للأدب والفن فى عصرها . وكان قصرها ساطعا بأفذاذ الأدباء وعظماء الطبقة العالية . (المترجم)

القصص « ميكروميجاس »[1] و « زاديج »[2] وهى القصص التى كتبها للتسلية دون أن يعلق عليها أهمية ، والتى ساهمت مع ذلك بقسط وافر فى بناء مجده

هناك بلاط آخر صغير أيضاً هو بلاط « لونيفيل » حيث كان أستانسلاسل ليزانسكى ملك پولونيا المخلوع يباشر سلطانه على صديقة وعلى مرشد دينى . وقد شاهد هذا البلاط كبرى مآسى حياة ڤولتير . وبجملها أن مدام دوشاتيليه بالشاب دى سان — لامبير الجميل الرقيق ، وقد باغتها ڤولتير معه ، فاستشاط غضبا ولكنه لم يلبث أن صفح عنها — شأن أهل الفلسفة — غير أن هذه السيدة كانت قد رزقت بطفل وماتت فى أثناء الوضع . وكان ألم ڤولتير عليها صادقا .

ولما حيل بينه وبين مأواه فى قصر سيريه ، فقد بحث عن ملجأ فى كنف ملك پروسيا فريدريك الثانى الذى كانت تربطه به بعض الصلات الودية عن طريق المراسلات . ولطالما حلم ڤولتير فى كل حياته « بالمستبد المستنير » — وقد حسب أنه وجده فى فريدريك — ثم بعد ذلك فى كاترينا إمبراطورة روسيا . بيد أن إقامته فى قصر بوسدام لم تلبث أن أبانت له أن طباع الملوك الفلاسفة تشبه بصورة واضحة طباع الملوك الطغاة ، فأين يستطيع

---

(1) Micromégas (2) Zadig

الفرار من هؤلاء وأولئك ؟ فذهب إلى سويسرا سنة ١٧٥٥ لأنه كان يأمل أن يصير فى ذلك البلد الجمهورى بمأمن من الشرطة الملكية ، ولكنه سرعان ماتبين أن التعصب فى جنيف أو فى لوزان لا يقل عنه فى باريس رهبة ، إذ أن رعاة البروتستانتية هناك أخذوا يهاجمونه . ولما رأى أنه لا يستطيع أن يكون فى مأمن تام فى فرنسا أو فى سويسرا ، فقد رأى أن أوثق الحلول هو أن يقيم بين البلدين . فأقام منزلين على شاطىء بحيرة جنيف ، ومنزلين على طول الحدود الفرنسية بذلك كان يستطيع الفرار عند أقل إنذار وانتظار انتهاء الخطر . وهكذا اشترى فى فرنسا قصر فيرنيه وضيعة تورنيه ، وفى سويسرا منزلا جيداً بلوزان ، وخلوة دليس على مقربة من جنيف . وهو فى هذا يقول : « عندما أزحف على هذا النحو من جحر إلى آخر ، أنجو من الملوك والجيوش » .

ولا جرم أن هذه الشيخوخة الطويلة فى قصر فيرنيه هى التى سمحت لمجد ڤولتير بأن يصير عالميا وشعبيا . وإذ كان يشعر بأنه فى مأمن ، وأنه أخيراً قد أصبح حراً فى أن يقول كل مايعتقده فى المسائل العالمية ، فقد صار أكبر الصحفيين فى عصره ، بل ربما فى جميع العصور ؛ فمن قصر فيرنيه كان ينساب على أوربا مطر من المقالات الهجائية ، والرسائل والنكات المازحة التى كانت تارة تعج باللوم على سوء استعمال السلطة ، وتارة أخرى

تتناول ذلك بالسخرية اللاذعة . ولقد حدث فى مرات متعددة أن أعلن ڤولتير مخاصمته للعدالة الرسمية بوقوفه فى صف متهمين كان يرى أنهم أبرياء . وعندما ظفر برد اعتبار كالاس البروتستانتى التعس الذى عذب وأعدم بسبب جريمة لم يقترفها ، وعندما دافع عن سيرفين وهو بروتستانتى آخر ، وعن فارس دى لابار التعس الذى كان ضحية لقضاة آبيفيل ، نال عن جدارة الشهرة بالشعور الإنسانى النبيل والشجاعة مما جعل اسمه نابها فى آلاف البيوت التى لم تكن كتاباته قد طرقتها من قبل .

وسرعان ما أصبح كأبطال الأساطير ، فعرفت أوربا كلها ذلك الشيخ المعروق العظام ذا العينين المليئتين بالحياة ، المتدثر بردائه البيتى المزدان بالزهور ، الذى يظن أنه قاب قوسين من الموت وهو فى الواقع أنشط الأحياء ، حيث كان حماسه فى زراعة حديقته ، لا يوازيه إلا حماسه فى إنشاء مآسيه ، كما كان دائم النشاط فى صنع الساعات الدقاقة والجوارب الحريرية ، وقد يرمى إلى قرائه فى غير احتفاء بإحدى روائعه كالرواية (كانديد) أو يدافع عن ضحية ما بنفس المهارة التى يهاجم بها أحد الأعداء . وهناك كان يقيم فى قصره مسرحا ومحكمة ومجمعاً فلسفيا ، وكان يراسل أربعة ملوك ، ويشاكس جيرانه ، وكان فى آن واحد خطراً ومسليا

وتبدو عليه سمات الخلود . ومع ذلك فقد انتهت هذه الحياة التى تفوق طاقة الإنسانية ولكن بعد أن بلغ الذروة التى تليق به . فنى أثناء سفره الأخير إلى باريس صفق له جمهور عظيم وراح يهتف قائلا : « افسحوا المكان لڤولتير ! ليحى ڤولتير ! المجد للمدافع عن كالاس ! » وقد رأى بنفسه على مسرح الكوميدى فرانسيز تمثاله النصفى وقد توجه الممثلون وصفق له الحاضرون وهم وقوف احتفاء به

وبعد بضعة أسابيع من هذا التكريم ، توفى فى ٣٠ مايو من سنة ١٧٧٨ . وهكذا ظفر بحياة سعيدة ونهاية منتصرة .

— ٢ —

لا جرم أن حياة « ڤولتير » وأحداثه الشخصية ، ووضعه في المجتمع ، تسمح بصورة لا بأس بها بالتنبؤ بما ستكون عليه فلسفته .

وبما أنه تألم من عدم التسامح ، ومن الرسائل المختومة ، ومن وقاحة الأشراف ، وكذلك لما كان لديه قلب وخيال فإنه سيكون خصما عنيداً لكل تعصب وكل استبداد . ولما كان من الطبقة المتوسطة ، وأنه رجل عمل ممتاز ، فإنه سيعجب بالدستور الذى منحته لنفسها « أمة من أصحاب الحوانيت » فى إنجلترا . ولما كان ذكاؤه ومهارته وموهبته قد سمحت له بأن يجمع ثروة كبيرة ، فإن هذا المصلح لن يكون ثوريا أبدا . وأخيراً لما كان فى الوقت ذاته ذكيا إلى حد الإعجاب وشغوفا بجميع العلوم من اللاهوت إلى السياسة ، ومن الفلك إلى التاريخ ، وقادرا على أن يبسط فى وضوح ظاهر أشد المسائل غموضا ، فإن سيحدث فى

ابناء عصره بل فى أبناء القرون التالية تأثيراً أعظم من تأثير أى كاتب آخر .

ويستطيع المرء أن يطلق على مؤلفاته بأسرها ذلك العنوان الشهير الآتى : عن جميع الأشياء التى يمكن أن تعرف ، بل عن أشياء عديدة أخـــرى «De omni re Scibili et de quibusdam aliis» . غير أنه ، إن تحدث فى الواقع عن جميع الأشياء القابلة للمعرفة بل وعن أشياء أخرى ، فإنه على الأخص مشهور بفلسفته الدينية ، أو بعبارة أكثر ضبطاً فلسفته اللادينية . ولقد اشتق من اسم ڤولتير اسم « الڤولتيرية (Voltairianisme) الذى يعرفه القاموس بأنه : « خطة الشك الساخرة بإزاء الأديان » . وفى أثناء توالى القرن التاسع عشر ، كان خصوم المسيحية ، والمرتابون فى جميع الأديان يرجعون إلى ڤولتير . وكان السيد هوميه[1] الصيدلى عدو الكنيسة ، يحسب أنه قد أخذ مداعباته وآراءه عن ڤولتير . ومع ذلك فليس يقينيا أن ڤولتير قد استصوب أفكار السيد هوميه لأنه إذا كان يســـخر من خرافات الأديان المقررة ، فإن المشكلات الدينية كانت تشغله بصورة قوية

---

(١) السيد هوميه هو أحد أشخاص رواية جوستاف فلوبير الشهيرة التى عنوانها « مدام بوفارى » . (المترجم)



إلى حد أن خصص لها جزءاً كبيراً من إنتاجه . وإذن فينبغي — إذا أردنا أن ندرس فلسفة ڤولتير — أن نبين بادئ ذى بدء ما هى إجابته عن الأسئلة الميتافيزيقية الأساسية التى أثارتها الأديان .

وأول هذه الأسئلة : هل الإله موجود ؟ ليس فى هذا أى شك ، فڤولتير يعتقد أن صانعاً إلهيا قد صور هذا الكون وجمعه ورتبه . والبرهان العظيم الذى يقدمه على هذا هو أولا نظام العالم أى « النواميس البسيطة السامية التى بها تسير الأجرام السماوية فى هوة الفضاء » . ولا ريب أن الساعة تثبت وجود الساعاتى ، وأن العمل العجيب الذى هو عالمنا ، ينم عن صانع ، وأن أكثر هذه القوانين الثابتة ينم عن مشرع . ومع ذلك فإن البعض قد زعم أن هذه القوانين الطبيعية المنظمة ، يمكن أن تكون ناشئة عن المصادفة، وأن الطبيعة موجودة منذ الأزل ، وأن كل شىء فيها يتغير على الدوام ، وإذا كان كل شىء لا يكف عن التغير ، فإنه ينبغى أن تحدث من تلك الأشياء جميع الأنظمة الممكنة ، ومن ثم فإنه لا يستحيل أن ينشأ نظام كنظام الكون الراهن خلال لا نهائية القرون .

إن هذا التفسير للعالم بواسطة المصادفة ، يبدو لڤولتير وهما متطرفا ، أولا لأنه توجد فى الكون كائنات عاقلة ، وأنك لا

تستطيع أن تثبت إمكان أن الحركة وحدها تنتج العقل . وبعد ذلك — بمقتضى اعترافك الخاص — يمكن الرهان بلانهاية من الإمكانات ضد إمكان واحد على أن هناك علة عاقلة تحرك الكون، وحين يكون المرء وحده تجاه اللانهائى يصبح جد مسكين . وحينما نشاهد آلة جيدة نقول إنه يوجد صانع لها وإن له عقلا نخيا . والعالم يقينا آلة جديرة بالإعجاب . وإذن فإنه يوجد فى العالم عقل جدير بالإعجاب أيا كان . نعم إن هذه الحجة قديمة ، ولكن قدمها لا يقضى عليها بالرداءة . »

وقد يعترض معترض على ذلك بقوله : إن هذا العالم لم ينجح إلى ذلك الحد الذى تتصورونه . حقا إننا قلنا إنه آلة جديرة بالإعجاب يثبت كمالها وجود الإله ، ولكن هل هذا فى الواقع حق ؟ أو ليس فى هذه الآلة عيوب ضخمة تثبت بالضبط عكس هذا المذهب ؟ وڤولتير نفسه لا يكل ألبتة من أن يصور الآلام الفظيعة التى يتعرض لها بنو البشر المساكين ، فمن القروح التى تأكل وجه بانجلوس إلى زلزال لشبونة ، ومن أكوام الجثث فى جبهات القتال إلى مواقد « محاكم التفتيش » ، بل إنه يبدو مغتبطاً حين يبين شناعة الوضع البشرى . هل يمكن للعقل أن يتصور أن سيداً أبويا رحيما يخترع أنواعاً من العذاب كثيرة إلى هذا الحد ليرهق

بهـا حشرات تعسة ؟ ،نحن حيوانات ضئيلة إلى أقصى حد — ومع ذلك فإن كل مايحوطنا يسحقنا . وبعد هذا العدد الهائل من المدن التى تتهدم، ويعاد بناؤها ثم يعاد هدمها مرة أخرى كأنها أجحار النمل ، ماذا نقول عن هذه البحار من الرمل ، وعن الأوبئة والفيضانات والبراكين والزلازل والأمراض والحروب والجرائم ؟ » .

حقاً إن ڤولتير يرى فى وضوح قوة الإعتراض ، ولكنه يجيب بأن الله خلق العالم بقوانين عامة ، وأنه لا يعنى بمقدور كل فرد على حدة وفوق ذلك فإن هناك — للاستدلال على وجود الله — حجة تختلف عن تلك اختلافا جوهرياً ، أى أنها لا تقبل النقض ، وهى الحجة الأخلاقية .

وذلك ، كما يجزم ڤولتير ، أن : « الإيمان بإله يثيب على الأعمال الخيرة ، ويعاقب على الشريرة ، أنفع عقائد النوع البشرى ، فهوالرادع الوحيد للأقوياء من بنى البشر وهوالرادع الوحيد للأشخاص الذين يقترفون الجرائم الخفية فى مهارة . لقد كان الملحدون وفيرين فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، فماذا نتج من ذلك ؟ كان تقديم السم مألوفا ألفة تقديم العشاء ، وكذلك كان غمس الخنجر فى قلب الصديق كأنه عناق له ... غير أنى لا أطلب إليك أن تخلط بهذا الإيمان الضرورى خرافات تلطخه بالعار . إن الملحد مسخ ولكن الخرافى

مسخ من نوع آخر ... وإن المنطقة الصغيرة المحددة للفضيلة هي بين الإلحاد والتعصب . فآمن بإله خيّر وكن خيرا ... إنى لا أود أن تكون لى علاقة بأمير ملحد يجد فائدته فى سحقى بالهاون إذ أنى موقن بأنه لابد أن يسحقنى . ولا أود ، لو كنت ملكا ، أن تكون لى علاقة ببطانة ملحدة لأنه من الضرورى للأمراء والشعوب أن تكون فكرة الكائن الأسمى منقوشة فى أرواح أفرادها بعمق ... »

لا يستطيع المرء أن يقول إن هذا البرهان على وجود الله جد متين لأن فى وسعه أن يثبت بنفس الطريقة ضرورة الإيمان بألوهية الملك كما تفعل بعض الشعوب الشرقية . « إذا هجرت الإيمان بأن الملك إله فماذا تصير الدولة ؟ » ولكن هذا البرهان لا يروق ڤولتير لا اقتناعا به بل من أجل فائدته لأفراد الشعب ، ففى الواقع ماذا يصير مولى فيرنيه لو أن خدمه كفوا عن الإيمان بعقوبات العالم الآخر ومثوباته ؟

— ٣ —

ولكن ما موقف الإنسان أمام الإله ؟ وهل يؤمن ڤولتير بحرية الاختيار ؟ إنه يقرر ، كأصدقائه العلماء ، أن العالم خاضع لنواميس محددة ، وأن هذه النواميس ثابتة . وهو فى هذا يقول : « إن الأجسام تهوى نحو مركز الأرض . . . وإن أشجار الكمثرى لا يمكن أن تثمر فاكهة الأناناس . . . وإن غريزة الكلب لا يمكن أن تكون هى غريزة النعامة . . . إن كل شىء مرتب متماسك محدود ، فالإنسان لابد أن يكون له عدد معين من الأسنان والشعر والأفكار ، ويأتى عليه وقت يفقد بالضرورة أسنانه وشعره وأفكاره . . . ولو أنه كان من المستطاع تغيير مصير ذبابة ، لأمكن صنع مصائر كل الذباب ، وكل بنى البشر والطبيعة بأسرها . ومما تسمعه من الأغبياء قولهم : « إن طبيبي أنقذ عمتى من مرض قاتل ، وجعلها تعيش عشرة أعوام أكثر مما كان مقدراً لها أن تعيش . » حقاً إن طبيبك قد أنقذ عمتك ، ولكنه لم يعارض بذلك نظام الطبيعة على أية حال ، بل تبعه لأنه من

الواضح أن عمتك لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها من أن تولد فى مدينة كذا وأن ينزل بها فى وقت كذا مرض كذا ، وأن الطبيب لم يكن يستطيع أن يكون فى مكان آخر غير المدينة التى كان فيها ، وأنه كان لا مناص لعمتك من أن تدعوه ولا مناص له من أن يأمر لها بالأدوية التى أبرأتها . وإذن فإن نظام الطبيعة لم يتغير بشفاء عمتك . ولذا يبدو أن الذى أطلق علينا اسم « دمى القدر » ، قد وضع لنا التعريف الدقيق .

وإذن ففولتير جبرى . ولكنه سيجد نفسه قد انتهى إلى إقرار الحرية كما أقر الإله لأسباب خلقية ، لأن عدم إيماننا بالحرية يهوى بنا فى الفوضى الاجتماعية ، فجمود الحرية معناه هدم كل روابط المجتمع البشرى : « وماذا يستفيد المرء من أن ينظر إلى نفسه على أنه آلة مع أنه يتصرف ككائن حر ؟ حقا إن الحرية ليست سوى الوهم الذى لدينا منها ولكن هذا الوهم ضرورى للاحتفاظ بنا فى حالة إيمان وعمل : « إذ أن خير المجتمع يتطلب أن يؤمن المرء بأنه حر . وقد بدأت أقدر السعادة أكثر مما أقدر الحقيقة » . وعلى أثر هذا يعثر فولتير على حجة للتوفيق بين الجميع فيقول : « إننا قطع فى آلة ضخمة ولكن كل شىء

يمر فى عقولنا كما لو كنا أحراراً ، لأن هذا الشعور بالحرية هو نفسه إحدى قطع الآلة . . »

هل يؤمن ڤولتير بوجود النفس وبالخلود ؟ إنه يؤمن بوجود قوة متميزة عن المادة وأكثر دقة منها ، وبأنه يمكن - إذ لم يكن من ذلك بد - أن يطلق عليها اسم النفس ، ولكنه لا يؤمن ألبتة بالخلود وهو يقول : « إننا لا نعرف شيئاً عن النفس . وعلى كل واحد منا أن يقول لنفسه : من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وماذا تعمل ؟ أنت شيء لا أدريه ، مفكر وحساس ، ولو أنك طفقت تحس وتفكر ألف مليون من السنين لما عرفت أكثر من هذا بوسائلك الخاصة ، فإن الله منحك العقل لتقتاد نفسك اقتياداً حسناً وليس لكى تتغلغل إلى جواهر الأشياء التى خلقها . على أنه مامعنى الخلود ، وما عسى أن تكون تلك النفس التى تحس بلا جسم ، وتسمع بلا أذن ، وتشم بلا أنف ، وتلمس بلا يد ؟ »

ها نحن أولاء من جديد فى طريق خطر ؛ فإذا لم تكن النفوس خالدة ، فكيف تعاقب أو تثاب بعد الموت ؟ وماذا يكون مصير الإيمان بالجحيم والنعيم ؟ ليس ڤولتير فى هذا الصدد بعيداً عن أن يفكر كذلك القسيس الكاثوليكى الذى يحدثنا عنه

والذى كان يقول لراع بروتستانتى مفرط فى الرحمة « ياصديقى إننى لا أومن بالجحيم الأبدى أكثر منك ، ولكن من الخير أن تؤمن به خادمتك وخائط ملابسك بل ووكيلك .. »

وبالاختصار إن ڤولتير يخضع الميتافيزيقا للأخلاق إخضاعا تاما ، أى يخضعها للسلوك العملى اليومى ، وذلك هو كل معنى رواية « كانديد » الصغيرة الجديرة بالإعجاب . ولا غرو فكانديد صورة جد متشائمة للكون كما نعرفه . إننا معرضون لأكثر الآلام فظاعة ، وإن الإله ليقضى علينا بالعقاب دون أن نقترف أى خطأ جدى أو إنه على الضد من ذلك يصفح عنا رغم الأخطاء المقترفة . وإن الناس يذبحون بأيدى البولغاريين ، أو يحرقون بأمر محاكم التفتيش ، والنساء يعتدى عليهن بوساطة القراصنة أو بوساطة رؤساء التفتيش . كل ذلك متناقض ، والعالم كما يسير يشبه كابوس أحد المجانين . فلا نحاول أن نفهم « ولنزرع حديقتنا » ينبغى أن نأخذ هذه العبارة التى بها ينتهى « كانديد » على معنى جد عام . هذه هى أخلاق المهندس . فعبارة « لنزرع حديقتنا » معناها لنبن مدنا نظيفة ولنحاول تحسين إنتاج الخيرات الضرورية للناس ، ولنستنبت الأراضى البكر ، وبالإجمال لنحى كما كان ڤولتير نفسه يحيا فى فيرنيه ، ولا ننشغل بما عدا ذلك . فالحياة ليست حسنة

ولا سيئة ، ولكنها هكذا وجدت . وينبغي لنا أن نقبلها وأن نحاول ، فى حدود وسائلنا الضعيفة أن نحسنها ، وكيف نحسنها ؟ بوساطة العمل والتواضع والصبر . إن حجج الميتافيزيقيين عبث ، وإن ضربات محفر البستانى أكثر منها جدوى ، فينبغى استنبات حديقتنا .

إن الضعف الوحيد فى هذه البراجمية الفولتيرية المعقولة جداً هو أنها لاتحسب أى حساب للحاجات الروحية . نعم إنه من الميسور أن يقال للناس : « آمنوا بالإله وإلا فإن أخلاقكم ستنهار » ولكنه يكاد يكون من المستحيل أن يقيم المرء على هذا النحو إيمانا حقيقيا . ومن الميسور أن يقال لهم : « آمنوا بالحرية . وآمنوا بخلود النفس . والا فلن يكون من الممكن وجود أى مجتمع متمدين . » ولكن هذه هى أوكد الوسائل لصرفهم عن الإيمان بهذين المبدأين . وأخيراً من الميسور أن يقال لهم : « استنبتوا حديقتكم » بل أن يعمل ذلك فعلا ، ولكنه من المستحيل أن يبدد المرء ضروب القلق الميتافيزيقية بوساطة هذه الأعمال الآلية وحدها .

من هذا نتبين أن مذهب فولتير لا يشرح الظاهرة الدينية ، وهى أنه لماذا نشاهد الناس ـ عندما يفقد الدين سلطانه فى نفوسهم ـ يعيدون دائما تشييده على صور تشبه السابقة تقريبا ؟ إن فولتير لا يستعرض هذه المشكلة التاريخية بمجرد استعراض .

ومع ذلك فهو مؤرخ ، بل هو بلا شك أكبر مؤرخى عصره، وليس ذلك لأنه كتب تاريخ لويس الرابع عشر وتاريخ شارل الثانى عشر[1] فحسب ، ولكنه يعتبر على الأخص فى كتابه « إمقال العادات » أحد الأولين الذين حاولوا تأليف تاريخ عالمى . حقا أن بوسويه قد تجرأ قبله فكتب كتابه « حديث عن التاريخ العالمى » ولكن هدفى الكتابين متعارضان تماما ، فبوسويه كان يريد أن يبين أن التاريخ نتيجة إرادة العناية التى تتدخل على الدوام لتنظم مصير الإمبراطوريات ، أما ڤولتير فعلى الضد من ذلك كانت غايته إبعاد ماوراء الطبيعة عن التاريخ . كان يميل إلى إظهار أن عظائم الأحداث ناشئة عن علل جد صغيرة ، فمثلا لو أن دوقة مارلبرا كانت أشد إقبالا على الحب الذى حملته لها ملكة انجلترا ، لتغير مصير أوربا

(١) شارل الثانى عشر هو أحد عظماء ملوك السويد . عاش فيما بين سنتى ١٦٨٢ ، ١٧١٨ . وقد لعب فى عصره دورا هاماً فى الحروب والسياسة . وقتل برصاصة مجهولة المصدر . (المترجم)

ويعتقد ڤولتير أن أحداث التاريخ ليست سوى نتائج المصادفة ، وأن تيار المقادير لا يتحول من وقت إلى آخر إلا بوساطة ذوى العبقرية .

إنه هو أول من أدخل فى التاريخ العام كبار شعوب آسيا من الهند واليابان والصين وكانت غايته من ذلك هى أن يظهر — فى تاريخ كوكبنا — ضآلة أثر تلك الحادثة اليهودية المسيحية الصغيرة والكتب المقدسة .

يعتبر مقال « عن العادات » هجاء لاذعاً ضد التاريخ الميتافيزيقى أولا وقبل كل شىء . ولكنه استبدل أوهام المؤرخين الدينيين بأوهامه التى ليست أقل خطورة منها ؛ فهو لا يرى فى كل تاريخ العصور الوسيطة سوى مجموعة من الجرائم والحماقات والتعاسات . ذلك أنه أساء فهم طبيعة النظام الإقطاعى . وهو يجعل من التاريخ الحديث كفاحا طويلا بين السلطة المدنية والسلطة الأكليروسية ، أو بين الكنيسة والدولة . وهو يعتقد بلا حذر أن انتصار الدولة سيكون بلا أية ريبة ممكنة نهاية جميع الاضطهادات ، وذلك سوء معرفة للطبيعة البشرية ؛ فالدولة عندما ستنتصر على الكنيسة ،

ستضطهد خصومها باسم مذهب ما بقسوة موازية أو أشد مما فعلته الكنيسة باسم العقيدة .

بيد أن ڤولتير جدير بالإعجاب حين يستكشف — تحت ستار تباين العادات والعقائد الكنسية — وحدة الأنظمة العميقة إنه يرى فى كل مكان قوانين مستقرة للاحتفاظ بما هو أساسى للنوع البشرى ، وما يحول دون دماره النهائى . وليس ذلك إلا حياة الأسر ، والملكية ، والأمن ، ورادع للسلطة المستبدة يفرضه القانون ، أو على الأقل تفرضه العادات . وهو فى هذا يقول : « إن الطقوس الرسمية الآسيوية غريبة ، وإن الاعتقادات غير قابلة للتعقل ، ولكن العظات مضبوطة ... فالدراويش والفقراء والزهاد والكهنة يقولون جميعاً : كونوا عدولا ومحسنين ... ومن هذه اللوحة ينتج أن كل مايتعلق بالطبيعة البشرية متشابه من أحد طرفى الكون إلى الآخر ، وأن كل مايمكن أن يتعلق بالعادة متباين ، أى أن العادة تذيع التنوع . والطبيعة تنشر الوحدة . وعلى هذا النحو تكون الأرض هى ذاتها فى كل مكان . والزراعة تنتج ثماراً مختلفة . »

كان هذا استنباطا جديدا جدا إذ ذاك . ومن هذه الدراسات التاريخية ينتزع ڤولتير مجموعة من المبادئ السياسية تؤلف مذهبا حراً جد حكيم . إن الشىء الذى أعجب به ڤولتير فى هوى عميق

فى أثناء شبابه ، والذى طفق يعجب به كل حياته ، هو انجلترا كما صنعها حزب الأحرار Whigs ، أى حرية التفكير والتعبير والتسامح ورفعة السلطة المدنية على السلطة الدينية ، وإمكان صعود أهل الطبقة الدنيا إلى الطبقات العليا ، والملكية الدستورية غير مطلقة السلطان . تلك هى سياسة ڤولتير . ولو أنه عاش إلى عصر الثورة لكان من أنصار الاحتفاظ بلويس السادس عشر ، ولكن مع وجود برلمان على الطريقة الإنجليزية ليراقبه .

وبالإجمال إن مايشتهيه هو أن يكون نوعنا المسكين قليل التعاسة بقدر الإمكان . وهو لا يعتقد أنه يمكن إنقاذه من عدم المساواة ، ويعبر عن هذا الموضوع فى شىء من القسوة فيقول « إنه من المستحيل فى عالمنا التعس ألا يكون الناس العائشون فى مجتمع واحد ، منقسمين إلى طبقتين : إحداهما طبقة الظالمين والأخرى طبقة المظلومين . وفى الواقع أن النوع البشرى ، على ما هو عليه ، لا يستطيع أن يحيا إلا بأن يكون هناك عدد لا يتناهى من ضروب الناس النافعين الذين لا يملكون شيئاً ألبتة ؛ لأن الرجل الذى يعيش فى سعة ، لا يترك أرضه لكى يحرث أرضك ، وإذا كنت فى حاجة إلى زوج من الأحذية فليس أحد رجال القضاء هو الذى سيصنعه لك . وإذن فالمساواة التى هى أكثر الفكر طبيعية ، هى فى

الوقت ذاته أشد الأشياء وهما . . . »

إنه يمتعض من الحرب وقد وصفها مائة مرة فى صورة قاسية على طريقة الرسام جويا . إنه يكره القسوة فى جميع صورها ، وعلى الأخص التعذيب . ويعتقد أنه ينبغى الكفاح ضد الحرب، ولكنه يعتقد أيضاً أن الإنسان حيوان خطر وأن الحكيم سيلقى دائما عناء فى أن يمنعه من القتال . إنه لا يؤمن بإمكان جعل بنى الانسان أخيارا ، ولكنه يؤمن بإمكان حكمهم بطريقة تجعل خبثهم لا يؤدى إلا إلى أقل شر ممكن . حقاً إنه لا يمكن تغيير نواميس الطبيعة ، ولكن من الممكن محاولة السيطرة على الطبيعة بوساطة إطاعتها . كما أن المهندس الماهر لا يزيل السيل ، ولكنه ينجح فى أن يقيم له جسرا .

وعندما كتب ڤولتير مادة « القوانين المدنية والكنسية » فى القاموس الفلسفى ، سأل نفسه ماهى القواعد الجوهرية لكل حكومة حرة وانتهى إلى أن تمنى : « أن لا يكون لأى قانون كنسى قوة إلا حين يظفر بالموافقة الصريحة من الحكومة . وأن يكون جميع الكنيسيين خاضعين فى جميع الحالات للحكومة لأنهم من رعايا الدولة . وأن لا يكون هناك سوى وزن واحد وقياس واحد وعرف واحد . وأن يكون كل قانون واضحاً وموحدا ومحددا

وأن لا يكون هناك ما يوسم بالوضاعة إلا الرذيلة . وأن لا تكون الضريبة ألبتة إلا نسبية . . »

كانت هذه الأماني موجودة تقريبا فى جميع كراسات المطالب التى قدمها نواب الشعب « Tiers-Etat » فى سنة ١٧٨٩ ، وقد أخذت بها كلها تقريبا قوانين الشعوب التى فاقت غيرها فى نظام الحكم .

لقد قيل إن سياسة ڤولتير هذه كانت سلبية ، ولكن كل سياسة يجب أن تبتدئ بأن تكون سلبية ما دامت تعتبر فى جوهرها رقابة وحداً مفروضا على الأهواء البشرية . على أن الخير الذى صنعه ڤولتير فى فيرنيه يثبت أنه كان قادرا على إدراك المهمة البنائية الوقعية للحكومة . لقد كان لديه فطرة سليمة وروح خفيفة ، وذكاء جدير بالإعجاب ، وشفقة على التعساء وكان كل ذلك ممزوجا بمقت شديد للباغين وخوف قوى من السفلة . تلك عناصر فاخرة لتكوين سياسى حر متبصر ، وذلك هو الذى كان .



— ٥ —

كتبت الدوقة دى شوازول عن ڤولتير تقول : « على الرغم من العيوب التى يمكن أن تؤخذ على ڤولتير ، فإنه سيظل دائما الكاتب الذى سأقرأ له وسأعيد القراءة بأشد أنواع السرور بسبب ذوقه وعالميته . ماذا يعنينى من أنه لا يقول لى شيئا جديدا مادام يبسط لى ما أفكر فيه ، وما دام يقول لى ، أفضل من أى إنسان ، ما قاله لى الآخرون ؟ لست فى حاجة إلى أن يعرفنى أكثر مما يعرف الجميع ، وأى مؤلف يستطيع أن يقول لى ما يعرفه الجميع على نحو ما يقوله لى فولتير ؟ »

لا جرم أن مدام دى شوازول تترجم هنا أحسن ما تكون الترجمة عن عرفان الجميل الذى كان معاصرو ڤولتير يشعرون به نحوه من أجل وضوحه وعالميته . إن هذا الرجل الذى كان يعرف كل شىء ، والذى كان يتحدث حديث المتخصص عن العلم والسياسة والاقتصاد والتاريخ والدين ، والذى كان يجلى أشد المسائل

غموضا ، والذى كان يمنح قراءه الشعور بأنهم مثله قادرون على فهم كل شىء ، قد ترك أثراً ضخما فى طبقة الأشراف والمتوسطين المثقفين فى عصره ، وألهمهم مذهبا حرا سليما فى ذاته . ولكن هذا المذهب كان لابد أن يجلب تطرفات الثورة لأنه أراد أن يزيل بصورة مفرطة ، حواجز كان ڤولتير يؤمن بضرورتها أكثر من أى شخص آخر .

بيد أنه بعد الثورة ، وحين عادت فرنسا إلى تقاليدها القديمة واستردت ملوكها ودينها ، قد نظر الفيلسوفان الجديدان دى بونالد وجوزيف دى ميستر De Bonald, Joseph de Maistre إلى ڤولتير على أنه قوة من قوى الظلام . وعلى الضد من ذلك نرى أن المعارضة الحرة للنظام الجديد اتخذته ملهما ، بل لقد قرئت مؤلفاته فيما بين سنتى ١٨١٥ و١٨٣٠ أكثر مما كانت تقرأ فى حياته . وفى ذلك العهد استطاعت مؤلفاته أن تكون تلك البرجوازية الصغيرة التى يعتبر السيد هوميه أحد نماذجها ، والتى انتهت بالضرورة إلى تأليف الحزب الراديكالى عند نهاية القرن .

أما تأثيره فى الأدب فقد كان أيضا جد عظيم ، وقد تحقق على الأخص عن طريق النصيب المفضل من مؤلفاته ، وهو الروايات . فقد ألهمت روح كانديد رينان وأناتول فرانس Renan, Anatole

France بل ، ألهمت بعض كتاب اليمين كشارل موراس وجاك بانفيل Ch. Mauras,J.Bainville . وفوق ذلك فإن أسلوب ڤولتير الساطع السريع البسيط الواضح قد بقى مثلا أعلى لأسرة كاملة من الكتاب الفرنسيين وهم الذين لم يقبلوا أستاذ المدرسة المنافسة أى شاتوبريان Chateaubriand .

وحتى فى البلاد الأجنبية نرى أن كتابا كلورد بايرون Byron يدينون بكثير للسخرية الڤولتيرية . ولقد كان من أكبر مطامع بيرناردشو Bernard Shaw أن يمثل فى انجلترا الدور الذى مثله ڤولتير فى فرنسا . وعلى مقربة منا نرى ليتون استراشيه يطلعنا على ذلك المنظر العجيب ، منظر ساخر إنجليزى يجلس فى مقعد فيرنيه .

وأمام حكم مدام دىشوازول الذى ذكرناه آنفا ينبغى أن نضع فى الجهة المعارضة حكم سيدة أخرى وهى الإمبراطورة أوجينى التى كانت تقول : « ڤولتير . . . إنى أغفر له أنه أفهمنى أشياء لن أستسيغها أبداً . » تلك كلمة خليقة بالإعجاب لأنها تصيب الموضع الوحيد الضعيف من الروح الڤولتيرية ، ففى الواقع أن ڤولتير لم يعترف قط بأنه يوجد فى الطبيعة البشرية وفى الكون جانب هام من الأسرار ، وأن الناس يشعرون بعواطف ،

ويرتبطون باعتقادات تعجز الكلمات عن وصفها ، وأن البلاد تحيا بتقاليد وذكريات بقدر ما تحيا بالفكر الواضحة . ومن ثم فإنه بعد انتصاراته التى أحرزها فى القرن التاسع عشر ، والتى كانت انتصارات معارضة — قد فقد حظوته لدى عدد كبير من الأشخاص المثقفين على الأقل فيما يتعلق بالقسم المذهبي من منتجاته . غير أنه لما كان الفكر البشرى مقضيا عليه بالتأرجح بلا انقطاع بين الإفراط فى التصديق والإفراط فى الارتياب ، فانه كان من الضرورى أن ينزل ڤولتير متعصبي عصره إلى منزلة العجز عن طريق سخريته الساطعة الواضحة . وكان من الضرورى أيضاً أن يترتب على ذلك رد فعل يهدئ بدوره ، بل يفحم متعصبي المذهب الڤولتيرى . وعما قريب سيكون من النافع أن يكتب ڤولتير جديد كانديدا جديدا عن متعصبين من نوع مجهول لدى فيرنيه وهم الذين يعدون اليوم تعاسة بنى الإنسان وينتزعونهم من « استنبات حديقتهم » .

أندريه موروا

كانديد « Candide »

قدمنا هنا جزءا كبيرا من «كانديد» لأنه تحفة ڤولتير ومن أجمل الكتب فى العالم . فالحب والحرب ، والشعر والشرف ، والحكمة والجنون ، وبالإجمال كل عناصر الحياة البشرية تجد فيه مكانها . وفيه يرى المرء كيف تنشأ أخلاق عملية معقولة مذعنة من تشاؤم يخلو من الوهم . إن كانديد « صورة للعالم » ، وهذه الصورة حزينة قابلة للاحتمال وحقيقية .

كانديد

أو التفاؤل

مترجم عن الألمانية وهو من تأليف السيد الدكتور رالف
مع الإضافة التي وجدت في جيب الدكتور
عندما توفي في ميندين في سنة ١٧٥٩ .

الفصل الأول

كيف ربى كانديد فى قصر جميل وكيف طرد منه

كان يوجد فى ڤيسفاليا بقصر السيد البارون توندىرتان ترونك شاب منحته الطبيعة أرق الطبائع ، وكانت ملامح وجهه تنم عن نفسه ، وكان حكمه على الأشياء مستقيما نوعا ما ، وعقليته أبسط العقليات . وأحسب أنه من أجل ذلك قد أطلق عليه اسم كانديد[1] . وكان خدم المنزل القدماء يشتبهون فى أنه كان ابن شقيقة السيد البارون وأحد الأشراف من الجيران الأخيار . ولكن تلك الآنسة لم ترد قط أن تتزوجه لأنه لم يستطع أن يثبت لنفسه إلا واحدا وسبعين جدا فى سلم طبقة الأشراف ، وأن الباقى من شجرته الأسرية قد فقد بفعل الزمن .

كان السيد البارون من أعظم إقطاعيي ڤيسفاليا سلطاناً ، لأن

(١) كلمة كانديد معناها فى الفرنسية «البرىء» . المترجم

قصره كان ذا باب ونوافذ ، بل إن قاعته الكبرى كانت مزدانة بفراش موشى . وكانت كل كلاب منزله العادية تؤلف سربا من أسراب الصيد عند الحاجة . وكان سائسوه هم المعدون لحملات الصيد . وكان قسيس القرية هو مرشده الدينى الأعظم . وكان الجميع يدعونه مولاى ، ويضحكون عندما يروى لهم بعض القصص .

وكانت السيدة البارونة التى يبلغ وزنها ٣٥٠ رطلا تقريبا ، تتمتع لهذا السبب باعتبار عظيم جدا . كانت تستقبل زائريها بعزة تجعلها أيضاً أكثر احتراما ؛ وكانت ابنتها كونيجوند البالغة من العمر سبعة عشر عاما ، ذات وجه وردى ، غضة سمينة تثير الرغبة فيها . أما ابن البارون فإنه كان فى كل شىء ، يبدو خليقاً بوالده . وكان المربى پانجلوس كأنه وحى المنزل ، وكان كانديد الصغير يستمع إلى دروسه بكل البساطة المتوقعة من سنه وخلقه . كان پانجلوس يعلم مزيجا من الميتافيزيقية واللاهوتية والتأسيس الكونى ؛ وكان يثبت بصورة جديرة بالإعجاب أنه لا توجد نتيجة بلا علة ، وأن قصر السيد البارون ـ فى عالمنا الذى هو أفضل العوالم الممكنة ـ من أجمل القصور . وأن السيدة هى أفضل البارونات الممكنات .

كان پانجلوس يقول : « قام البرهان على أن الأشياء لا يمكن أن تكون على حالة أخرى ، لأنه لما كان كل شيء مصنوعا لغاية ، فإن كل شيء قد وجد بالضرورة لأفضل غاية . لاحظوا أن الأنوف قد صنعت لتحمل المناظير ، ولهذا لدينا مناظير ، وأن السيقان قد أنشئت لتتسرول ، ولهذا لدينا سراويل . وأن الأحجار قد تكونت لتنحت وتشيد منها قصور ، ومن ثم فإن مولاى لديه قصر جد جميل ، إذ أن أعظم بارون فى الإقليم يجب أن ينزل أفضل المساكن . ولما كان الخنزير خلق ليؤكل ، فإننا نأكل لحم الخنزير طول العام . والنتيجة التى تستنبط من كل هذا هى أن الذين قالوا إن كل شيء حسن ، قالوا حمقا ، وكان ينبغى أن يقال : إن كل شيء على أفضل وجه ممكن . »

كان كانديد يستمع إلى ذلك بانتباه ، ويصدقه فى براءة لأنه كان يجد أن الآنسة كونيجوند جميلة إلى أبعد الحدود ، ولو أنه لم يكن لديه الجرأة على أن يقول لها ذلك . ولقد استنبط من ذلك أن الدرجة الثانية من السعادة — بعد السعادة التى تعود على المرء من كونه بارونا لتوندر تان ترونك — هى أن يكون الآنسة كونيجوند ، والسعادة الثالثة هى رؤيتها كل يوم ، والرابعة هى

الاستماع إلى الأستاذ پانجلوس أعظم فيلسوف فى الإقليم وبالتالى فى كل الأرض .

وفى أحد الأيام حدث أن كونيجوند — وهى تتنزه على مقربة من القصر فى الغابة الصغيرة التى يدعونها بالبستان - رأت بين الأدغال الدكتور پانجلوس فى جلسة حالمة مع خادمة والدتها وهى سمراء قصيرة جميلة وجد مطيعة .

ولما كانت الآنسة كونيجوند من ذوات الطبائع الحالمة هى الأخرى ، فقد راقبت العاشقين دون أن تتنفس ، ورأت فى وضوح السبب الكافى الذى دفع الدكتور إلى ذلك ، وكذلك النتائج والعلل . فعادت غارقة فى التفكير العميق ، مليئة بالرغبة فى أن تكون هى السبب الكافى للشاب كانديد الذى يمكن أن يكون هو أيضاً سببها الكافى .

وفى أثناء عودتها إلى القصر التقت بكانديد فاحمر وجهها وكذلك كانديد احمر وجهه ، فحيته بصوت متقطع ، وأجابها كانديد دون أن يعرف ما يقول . وفى اليوم التالى بعد تناول الغداء وعلى أثر مغادرة المائدة ، ألفت كونيجوند وكانديد نفسيهما خلف الحاجز . وتركت كونيجوند منديلها يسقط من يدها فالتقطه كانديد ، وتناولت الفتاة يده فى براءة ، وقبل الشاب ببراءة يد

الفتـاة فى حيوية وحساسية ورشاقة خاصـــة . ولـكن البارون توندرتان ترونك مر إذ ذاك على مقربة من ذلك الحاجز ، وعندما رأى هذا السبب وتلك النتيجة طرد كانديد من القصر بركلات قدم قوية فى أسفل ظهره ، فأغمى على كونيجوند . وعندما عادت إلى نفسها صفعتها السيدة البارونة وعم الاكتئاب كل شيء فى أجمل وأمتع القصور الممكنة .

الفصل الثاني

ماذا صار كانديد بين البولغاريين

حين طرد كانديد من الفردوس الدنيوى سار وقتا طويلا دون أن يعرف أين يذهب ، وكان يبكى ويرفع عينيه نحو السماء ، وكثيرا ما كان يديرهما صوب أجمل القصور التى تحتوى أجمل صغيرات البارونات . وقد نام بلا عشاء فى وسط الحقول بين خطين من خطوط الحرث ، وكان البرد يهطل بغزارة . وفى صباح اليوم التالى جعل كانديد يسير مرتعدا وفى عسر نحو المدينة المجاورة التى تدعى ڤالبير جوف - ترار بيك - ديكورف . ولقد انتهى به السير إلى إحدى الحانات فوقف على بابها محزونا بلا مال ، وهو يكاد يموت جوعا وعناء . وعند ذلك لاحظه رجلان يرتديان ملابس زرقاء فقال أحدهما للآخر :

— أيها الرفيق ، ها هو ذا شاب حسن التكوين جدا ولديه القامة المطلوبة .

وإذ ذاك تقدما من كانديد ودعواه فى أهب جم إلى الغداء، فقال لهما كانديد فى تواضع ساحر :

— سيدىّ إنكما تشرفاننى كثيراً ، ولكن ليس لدى ما أدفع منه حصتى .

فأجابه أحد ذوى الملابس الزرق قائلا :

— آه ياسيدى إن الأشخاص الذين لهم مثل وجهك ومثل مزيتك ، لا يدفعون ألبتة شيئاً ، أليس طول قامتك خمسة أقدام وخمس بوصات ؟

فأجاب بانحناء قائلا :

— بلى ياسيدى، هذه هى قامتى .

— آه ياسيدى اجلس إلى المائدة ، إننا لن ندفع عنك فحسب ، بل لن نحتمل أبداً أن رجلا مثلك ينقصه المال ، فلم يخلق الناس إلا ليعاون بعضهم بعضاً .

— أنت محق ، فهذا هو ما قاله لى السيد بانجلوس دائماً . وأنا أرى أن كل شىء على خير ما يمكن أن يكون .

وإذ ذاك يرجوانه أن يقبل بعض قطع من العملة فيأخذها ويهم بأن يحرر صكا ، فيرفضان ذلك ويجلسون جميعاً إلى المائدة وعلى أثر ذلك يسأل أحد الرجلين قائلا :

— ألا تحب من قلبك ... ؟

— بلى أحب من قلبي الآنسة كونيجوند .

فقال أحد ذينك السيدين :

— لا ، نحب نسألك عما إذا كنت لاتحب من قلبك ملك البولغاريين .

— ألبتة ، لأنى لم أره قط .

— كيف ! إنه أكثر الملوك سحرا وينبغى الشرب على صحته .

— بكل امتنان ياسيدى .

ثم يشرب كانديد ، وعلى أثر ذلك يقول له الرجلان :

— حسبنا هذا ، فها أنت ذا قد صرت سند البلغاريين ومعتمدهم ومدافعهم وبطلهم . وقد تكونت ثروتك ، وتحقق مجدك .

وفى الحال يغلان قدميه ويقتادانه إلى المعسكر[1]. وهنا يجرى له التمرين المألوف الذى بمقتضاه يدور يميناً ويساراً ، ويستعمل البندقية ، ويستهدف ويطلق ، ويضاعف الخطى ، ثم يضرب

---

(١) يريد فولتير هنا أن يصف كيف كان يتصيد عمال الملوك الأوربيين فى ذلك الحين الأفراد الذين يؤلفون منهم الجيوش. ويحسب الباحثون أن ملك البولغار هنا يمثل فريدريك الثاني ملك بروسيا . (المترجم)

ثلاثين عصا . وفى اليوم التالى يقوم بالتمرين على صورة أقل عناء ، ولا يتلقى إلا عشرين عصا . وفى اليوم الذى يليه لا يعطى منها إلا عشراً ، ورفاقه ينظرون إليه على أنه شخص غير عادى .

كان كانديد ذاهلا فلم يتبين كيف أنه صار بطلا . وقد صمم فى أحد أيام الربيع الجميلة على أن يذهب إلى النزهة سيراً على قدميه فى خط مستقيم حاسبا أن من امتيازات النوع البشرى — كما هو من امتيازات أنواع الحيوانات — أن يستعمل ساقيه كما يشتهى . ولا يكاد يقطع مرحلتين حتى يتعقبه أربعة « أبطال » آخرين ، قامة كل منهم ستة أقدام ، فيلحقون به ، ويوثقونه ويقتادونه إلى السجن الانفرادى . وقد خير عن طريق القضاء بين أن يضربه كل فرد من الفرقة ستا وثلاثين عصا أو أن يتلقى دفعة واحدة اثنتى عشرة رصاصة فى رأسه . وعبثا حاول أن يقول لهم إن الإرادات حرة وإنه لا يريد أحد الأمرين ولا الآخر ، ولكن كان ينبغى الاختيار بينهما ، فصمم — باسم المنحة الإلهية التي يدعونها بالحرية — على أن يمر بالعصا ستا وثلاثين مرة ، فاحتمل دورتين . وبما أن الفرقة كانت مؤلفة من ألفى جندى ، فقد تلقى أربعة آلاف عصا انتهت بأن كشفت جلده عن عضلاته وأعصابه من عنقه إلى أسفل ظهره . وبينما كانوا يشرعون فى الدورة الثالثة ، وكان الخور قد بلغ بكانديد أقصى

مداه . طلب التفضل بأن يكونوا تجاهه أخيارا فيحطموا رأسه ويظفر بهذه الحظوة . وتعصب عيناه ، ويطلب إليه الركوع على ركبتيه ، وفى هذه اللحظة يمر ملك البولغاريين فيستعلم عن جريمة المحكوم عليه . وبما أن هذا الملك كان عبقريا عظيما ، فقد فهم — بوساطة كل ما علمه عن كانديد — أنه كان شاباً ميتافيزيقياً جد جاهل بأمور هذا العالم ، ومنحه عفوه برحمة كانت موضع ثناء من جميع الصحف وفى جميع العصور . وقد أبرأ جراح خيّر كانديد فى ثلاثة أسابيع بوساطة الملفات المتلقاة عن ديوسكوريد[1] . وكان قد نبت له قليل من الجلد واستطاع السير عندما بدأ ملك البولغاريين المعركة ضد ملك الأباريين[2] .

(١) ديوسكوريد هو طبيب إغريقى نابغ عاش فى القرن الأول بعد المسيح .
(٢) الأباريون أو الأفاريون هم شعب تترى غزا أوربا فى القرن السادس . وقد قوض شارلمان إمبراطوريته التى يشغل الهونغاريون اليوم قسما منها . (المترجم)

الفصل الثالث

كيف فر كانديد من بين البولغاريين وماذا صار

لم يكن هناك شيء جميل ونشيط وساطع وحسن التنظيم كما كان هذان الجيشان . فالأبواق والمزامير والطبول والمدافع كانت تؤلف انسجاما لم يوجد له قط نظير فى الجحيم . بدأت المدافع بحصد ستة آلاف رجل من كل جانب . وبعد ذلك محت البنادق من أفضل العوالم مابين تسعة آلاف وعشرة آلاف وغد كانوا يفسدون وجه الأرض ، وكذلك كانت الحراب سببا كافيا لموت بضعة آلاف من الرجال . ومن الممكن أن يصل العدد كله إلى حوالى ثلاثين ألف نسمة . ولا جرم أن كانديد الذى كان يضطرب ككل فيلسوف ، قد اختفى بقدر ما استطاع فى أثناء هذه المجزرة البطولية .

وأخيراً وبينما كان كل من الملكين يأمر فى معسكره بترتيل تسابيح الحمد الدينية Te Deum (١) صمم كانديد على أن يذهب

---

(١) تي ديوم هو نشيد دينى يرتل فى الكنائس للشكر عند الانتصار فى الحروب ، وقد عزى ابتداعه إلى القديس أمبرواز والقديس أوجوستان . (المترجم)

ليتأمل بعيداً عن ذلك فى النتائج والعلل ، فر فوق أكوام الموتى والمحتضرين . وقد وصل أولا إلى قرية مجاورة فألفاهارمادا وكانت قرية أبارية أحرقها البولغاريون بمقتضى قوانين الحق العام . فهنا شيوخ مثقبة أجسامهم بالطعنات كأنها غرابيل ينظرون إلى نسائهم المذبوحات ، اللواتى يضممن أطفالهن إلى صدورهن الدامية . وهناك فتيات بقرت بطونهن بعد أن أشبعن الحاجات الطبيعية لبعض « الأبطال » ، وكن يسلمن الأنفاس الأخيرة . وأخريات قد أحرقت أنصافهن ، يصرخن متلهفات على إنهاء حياتهن بمنحهن الموت . وأمخاخ كانت منتثرة على الأرض إلى جانب أذرعة وسيقان مقطعة .

وإذ رأى كانديد ذلك ، فر على عجل إلى قرية أخرى يملكها البلغاريون . وكان « الأبطال » الأباريون قد عاملوها نفس المعاملة . وأخيرا طفق كانديد يسير فوق أعضاء لا تزال تنبض ، أو بين الأطلال حتى وصل إلى ما وراء مسرح الحرب ، حاملا قليلا من القوت فى خرجه ، دون أن ينسى قط الآنسة كوينجوند . وعندما وصل إلى هولاندا أعوزه القوت ، ولكنه لما كان قد سمع أن الناس جميعاً أثرياء فى تلك البلاد وأنهم مسيحيون أتقياء لم يشك فى أنهم سيعاملونه نفس المعاملة التى كان عليها فى قصر السيد

البـارون قبل أن يطرد منـه من أجل عينى الآنسة كوينجوند الجميلتين .

طلب الإحسان من عدة أشخاص أجلاء ، فأجابوه جميعاً بأنه إذا استمر يزاول هـــذه المهنة ، فإنه سيحبس فى إحدى دور الإصلاح ليتعلم كيف يعيش .

وعلى أثر هذا اتجه إلى رجل كان قد تحدث وحده ساعة كاملة عن الإحسان فى اجتماع كبير ، فنظر إليه هذا الخطيب نظرة شزراء ، وقال له .

— ماذا أتيت تصنع هنا ؟ أأنت هنا لمناصرة السبب الحق ؟

فأجاب كانديد فى تواضع قائلا :

— لا توجد نتيجة بلا سبب ، إذ أن كل شىء مترابط بالضرورة ومرتب للسير نحو الأفضل . كان لابد أن أطرد من جوار الآنسة كونيجوند وأن أتلقى ضربات العصى ، وأرانى مضطرا لأن أطلب قوتى إلى أن أستطيع اكتسابه ، فكل ذلك لم يكن ليمكن أن يحدث على نحو آخر .

— ياصديقى هل تعتقد أن البابا هو المسيخ الدجال ؟

— إنى لم أسمع حتى الآن هذا القول ، ولكن سواء أكانه

أم لم يكنه ، فإني فى حاجة إلى خبز .

— إنك لا تستحق أن تأكله . اذهب أيها الوغد ، أيها الشق ، ولا تدن منى فى حياتك .

ولما كانت زوجة الخطيب تنظر من النافذة ورأت رجلا يرتاب فى أن البابا هو المسيخ الدجال ، ألقت على رأسه إناء مليئاً ... أوه أيتها السماء ! إلى أى تطرف يصل الحماس الدينى عند السيدات !

كان هناك رجل خير لم يعمد يدعى جاك ، فرأى تلك الطريقة القاسية المخجلة التى يعامل بها أخ فى البشرية أو كائن ذو رجلين ولا ريش ، وله نفس[1] . فأخذه إلى منزله ونظفه وقدم إليه خبزاً وجعة وأهداه قطعتين من العملة ، بل أراد أن يعلمه فى مصانعه كيف يعمل الأقمشة الفارسية التى كانت تصنع فى هولاندا . فسجد كانديد تقريبا أمامه وهتف قائلا :

(١) يشير فولتير هنا فى دعابة إلى التعريف القديم الذى وضعه أفلاطون للانسان قبل تعريف أرسطو إياه بأنه حيوان ناطق وذلك التعريف البدائي هو الإنسان حيوان ذو رجلين بلا ريش . (المترجم)

ـــ إن الأستاذ بانجلوس قال لى إن كل شيء فى هذا العالم على خير ما يمكن أن يكون ، لأنى أشد تأثرا إلى حد لا يتناهى بكرمك الفائق منى بقسوة ذلك السيد ذى المعطف الأسود والسيدة زوجته .

وفى اليوم التالى بينما كان يتنزه ، التقى بصعلوك مغطى بالدمامل، وعيناه مائلتان ، وطرف أنفه متآكل ، وفمه معوج ، وأسنانه سود ، وهو يتحدث من حنجرته ، ويعذبه سعال عنيف ،ويبصق إحدى أسنانه مع كل مجهود .

الفصل الرابع

كيف التقى كانديد بالدكتور بانجلوس

أستاذه القديم فى الفلسفة ، وماذا حدث من هذا اللقاء ؟

وقد تأثر كانديد بالإشفاق أكثر منه بالانزعاج فأعطى ذلك الصعلوك المفزع قطعتى العملة اللتين تسلمهما من جاك غير المعمد . وهنا نظر إليه ذلك الشبح فى تحديق وذرف العبرات ثم قفز إلى عنقه ، فتقهقر كانديد فزعا ، فقال التعس للتعس الآخر :

— واحر قلباه ألم تعد تعرف بانجلوسك العزيز ؟

— ماذا أسمع ؟ أأنت يا أستاذى العزيز ؟ أنت فى هذه الحالة المرعبة ! أى شقاء نزل بك إذن ؟ لماذا لم تظل تقيم فى أجمل القصور ؟ ماذا صارت الآنسة كونيجوند جوهرة الفتيات ، وتحفة الطبيعة ؟

فأجاب بانجلوس قائلا :

— لم أعد أستطيع حتى الكلام .

وعلى أثر ذلك اقتاده كانديد إلى حظيرة غير المعمد حيث أطعمه قليلا من الخبز . وعندما تحسنت حالة پانجلوس قال له كانديد :

ـــ والآن ! ماذا حدث لكونيجوند ؟

ـــ إنها ماتت .

عندما سمع كانديد هذه الكلمة أغمى عليه ، وهنا أعاد إليه صديقه إحساسه بوساطة قليل من الخل الردىء الذى كان يوجد مصادفة فى الحظيرة . فتح كانديد عينيه وصاح قائلا :

ـــ ماتت كونيجوند ! آه يا أفضل العوالم أين أنت ؟ ولكن بأى مرض ماتت ؟ ألا يكون ذلك لأنها رأتنى طردت من قصر السيد والدها الجميل بوكزات قدم ؟

ـــ كلا ، بل بقر بطنها جنود بلغاريون بعد أن اعتدوا عليها أقصى ما يكون الاعتداء ، وحطموا رأس السيد البارون الذى كان يريد الدفاع عنها ، وقد مزقت السيدة البارونة أشلاء ، وتلميذى المسكين قد عومل بالضبط نفس المعاملة التى عوملتها شقيقته . أما القصر فلم يبق منه حجر على حجر ، لا مستودع ولا كبش ولا بطة ولا شجرة ، ولكن قد انتقم لنا لأن الأباريين قد فعلوا مثل هذا فى بارونية مجاورة كان يملكها مولى بولغارى .

وعند سماع كانديد هذه الخطبة أغمى عليه مرة أخرى ، ولكنه حين رجع إلى نفسه ، وبعد أن قال كل ما كان يجب أن يقوله ، طفق يستعلم عن العلة والمعلول وعن السبب الكافى الذى وضع پانجلوس فى حالة جديرة بالإشفاق إلى هذا الحد . فأجاب هـذا الآخير بقوله :

— ياللأسف ! ! إنه الحب ، الحب المواسى للنوع البشرى وسر بقاء الكون وروح كل الكائنات الحساسة ، الحب الحنون .

— واحر قلباه ! لقد عرفته ذلك الحب ، ذلك المسيطر على القلوب ، إنه روح روحنا ، إنه لم يجد على إلا بقبلة واحـدة وعشرين وكزة قدم . كيف استطاعت هذه العلة الجميلة أن تجلب إليك نتيجة فظيعة إلى هذا الحد ؟

أجاب پانجلوس بالعبارة التالية :

— إنها عدوى من مرض خبيث ، أخذت تنتقل من شخص إلى شخص حتى وصلت إلىّ . أما أنا فلن أعطيها لأحد لأنى مائت .

— ياپانجلوس ! هاهى ذى دوحة أسرية ! أليس الشيطان هو الذى كان أرومتها ؟

أجاب هذا الرجل العظيم قائلا :

— ليس ذلك ألبتة ، وانما هو شيء لامحيص عنه ، فى أفضل العوالم ، إنه عنصر ضرورى . لأنه لو لم يكن خريستوف كولومب قد أصيب فى إحدى جزر أمريكا بهـــذا الداء الذى يسمم منبع التناسل بل الذى كثيراً ما يمنع التناسل ، والذى هو يقينا ضد الغاية العظمى للطبيعة ، لما ظفرنا بالشيكولاتة ولا بصبغة الدودة القرمزية .. وينبغى أيضا أن نلاحظ أن هذا الداء فى قارتنا لا يزال حتى اليوم خاصاً بنا كالمجادلات ، وأن الاتراك والهنود والفرس والصينيين والساميين واليابانيين لم يعرفوه بعد . غير أنه يوجد سبب كاف لكى يعرفوه بدورهم فى مدى بضعة قرون . وفى انتظار ذلك قد خطا إلى الأمام خطوات عجيبة لا سيما فى هذه الجيوش العظيمة المؤلفة من أجراء شرفاء حسنى التربية يقع على كاهلهم تقرير مصائر الدول . ويستطيع المرء أن يقاتل ثلاثين ألف رجل فى معركة منظمة ضد قوى مساوية لهم فى العدد ، فإنه يكون من بينهم عشرون ألفاً تقريباً مصابون بالزهرى من كل جانب .

— هذا جدير بالإعجاب، ولكن ينبغى إبراؤك .

— وكيف أستطيع ذلك ؟ ليس لدى مال إطلاقا ياصديق، وعلى سطح هذه الكرة لا يستطيع المرء أن يفصد أو أن يغسل أمعاءه دون أن يدفع الأجر ، أو أن يكون هناك من يدفع بالنيابة عنه .

حددت هذه الخطبة موقف كانديد ، فاتجه إلى صديقه غير المعمد المحسن ، فركع عند قدميه ورسم له صورة مؤثرة للحالة التى انتهى إليها صديقه إلى حد أن ذلك الرجل الخيّر لم يتردد فى أن يأوى الدكتور پانجلوس . وقد عالجه على نفقته . وفى أثناء العلاج لم يفقد پانجلوس سوى إحدى عينيه وإحدى أذنيه . وبما أنه كان يجيد الكتابة ويعرف الحساب معرفة تامة فقد اتخذه جاك غير المعمّد ممسكا لدفاتر حسابه . وبعد شهرين اضطر جاك إلى الذهاب إلى لشبونة لشؤون تجارته ، فأخذ معه فيلسوفيه فى سفينته . وإذ ذاك شرح له پانجلوس كيف أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان . ولكن جاك لم يكن على هذا الرأى وكان يقول :

— ينبغى أن يكون بنو البشر قد أفسدوا الطبيعة قليلا ، لأنهم لم يولدوا ذئابا فصاروا ذئابا ، ولأن الإله لم يمنحهم مدافع ولا حرابا ، فصنعوا لأنفسهم مدافع وحرابا ليتبادلوا بها الفناء .

وأستطيع أيضا أن أحسب حساب التفليسات والعدالة التى تستولى على ما ينبغى من ثروات المفلسين لتحرم الدائنين حقوقهم منها .

فأجاب الدكتور الأعور بقوله :

— إن كل ذلك لم يكن منه محيص ، وإن التعاسات الخاصة تؤلف الخير العام ، بحيث إنه كلما كانت التعاسات الخاصة أكثر ، كان كل شىء حسنا .

وبينما كان يفلسف على هـذا النحو اكفهر الجو وصفرت الرياح من جهات العالم الأربع ، وهاجمت أفظع العواصف السفينة على مقربة من شاطىء لشبونة .

الفصل الخامس

العاصفة والغرق والزلزال وما صار إليه الدكتور بانجلوس وكانديد وجاك غير المعمد

إن نصف المسافرين قد ضعفوا وأشرفوا على الاحتضار من المقلقات التى لايدركها العقل ، والتى يحملها اضطراب الباخرة إلى الأعصاب وإلى أمزجة الجسم المهتاجة فى اتجاهات مضادة فلم يعودوا يقوون حتى على الانشغال بالخطر . بينما راح أفراد النصف الآخر يصيحون ويصلون .

تمزقت القلاع وتحطمت الصوارى وانفتحت السفينة ، فليعمل من كان يستطيع العمل ، فلم يكن هناك أحد على وفاق مع آخر ولا أحد يأمر . كان جاك يساعد قليلا فى المناورة وهو فوق ظهر السفينة ، وهنا يضربه بحار مخبول فيطرحه على الألواح ، ولكن هذا البحار قد اهتز اهتزازاً عنيفا من قوة الضربة التى ناوله إياها

إلى حد أن سقط خارج السفينة على مقدم رأسه . وظل معلقاً مشتبكا بجزء من أحد الصوارى المحطمة ؛ وإذ ذاك يسرع جاك الخيّر إلى إغاثته ويساعده على الصعود . وفى أثناء المجهود الذى يبذله ، يهوى فى البحر تحت بصر ذلك البحار الذى يتركه يهلك دون أن يتنازل حتى بالالتفات إليه . وهنا يقترب كانديد فيرى ولى نعمته يطفو لحظة ثم يبتلعه الماء إلى الأبد ، ويود أن يقذف بنفسه وراءه فى البحر فيمنعه الفيلسوف پانجلوس من ذلك مثبتا له أن خليج لشبونة قد تكون قصداً لكى يغرق فيه غير المعمّد . وبينما هو يثبت ذلك إثباتاً تحكيمياً بحتاً ، تنفتح السفينة ويهلك كل شىء ماعدا پانجلوس وكانديد وذلك البحار الوحشى الذى أغرق غير المعمّد الفاضل ، فسبح ذلك الوغد سليما إلى الشاطىء الذى حمل إليه پانجلوس وكانديد على لوح .

وعندما عادا إلى نفسيهما قليلا سارا إلى لشبونة ، وقد بقى لهما شىء من المال كانا يؤملان أن ينجوا به من الجوع بعد أن نجوا من العاصفة .

ولا يكادان يضعان أقدامهما فى المدينة باكيين موت رب

نعمتهما حتى يشعرا أن الأرض تضطرب تحت خطواتهما ، وأن البحر يرتفع فائرآ فى المرفأ ، ويحطم السفن الرابضة فى مراسيها ، وأن زوابع من اللهب ومن الرماد تغطى الطرقات والميادين العامة وأن المنازل تنهار ، والسقوف تخر على الأسس ، والأسس تفتتر ، وأن ثلاثين ألفاً من السكان من جميع الأعمار والأجناس قد سحقوا تحت الأطلال ؛ وكان ذلك البحار يقول فى استهتار وتجديف (*) :

— سيكون هنا شيء للاصطياد .

وكان بانجلوس يقول متسائلا :

— ما عسى أن يكون السبب الكافى لهذا الحادث ؟

ويقول كانديد :

— هذا هو اليوم الأخير فى العالم !

وعلى أثر ذلك يهرول البحار بين الحطام ، ويجابه الموت ليعثر على المال فيجده ويستولى عليه ، ويسكر ولا يكاد يفيق من ثمله حتى يشترى أول فتاة سلسة القياد يلتقى بها على أطلال المنازل

(*) التجديف هو الاستهتار بالعبارات فى جانب المقدسات إلى حد قد يصل إلى سب الإله . (المترجم)

المتهدمة وبين المائتين والموتى . ومع ذلك فقد كان بانجلوس يجذبه من كمه ويقول له :

ليس هـذا حسنا ، إنك تخطىء فى حق السبب العام وتسىء اختيار وقتك .

ــ ياللرأس والدم ! إننى بحار ولدت فى بتافيا ، ولقد مشيت أربع مرات فوق الصليب فى أربع رحلات إلى اليابان . آه ! لقد عثرت حقاً على الرجل الذى تستطيع إقناعه بسببك العام !

كانت بعض شظايا الأحجار قد جرحت كانديد فتمدد فى الطريق وغطاه الحطام ، وكان يقول لبانجلوس :

ــ واأسفاه ! أحضر لى قليلا من النبيذ والزيت فإنى أموت .

ولـكن بانجلوس يجيبه قائلا :

ــ ليس هذا الزلزال شيئاً جديداً فدينة ليما قد شعرت بنفس الهزة فى العام الماضى . وبما أن نفس العلل تنتج نفس المعلولات فإنه توجد يقيناً سلسلة من الـكبريت تحت الأرض من ليما إلى لشبونة .

ــ لا شىء أكثر احتمالا من هذا . ولـكن أعطنى لله قليلا من الزيت والنبيذ .

— كيف يكون ذلك محتملا فحسب ؟ إنى أجزم بأن هذا الشيء قد قام عليه البرهان .

فقد كاندبد وعيه ، فأحضر له پانجلوس قليلا من الماء من عين مجاورة .

وفى اليوم التالى وجدا شيئاً من الغذاء فى أثناء انزلاقهما بين الأطلال ، فاستردا قوتهما قليلا . وعلى أثر ذلك طفقا يعملان كالآخرين على الترويح عن السكان الذين نجوا من الموت . وهناك بعض المواطنين الذين أعاناهم على النجاة فقدموا إليهما غذاء جيدا جهد المستطاع فى مثل هذه الكارثة .

حقاً إن المائدة كانت مكتئبة ، وإن جميع الحاضرين كانوا يبللون خبزهم بدموعهم . ولكن پانجلوس كان يواسيهم مؤكدا لهم أن الأمور لايمكن أن تكون على نحو آخر ويقول :

— لأن كل ذلك على خير مايمكن أن يكون ؛ لأنه إذا كان يوجد بركان فى لشبونة ، فإنه لا يمكن أن يكون فى مكان آخر ، لأن من المستحيل ألا تكون الأشياء حيث هى ، لأن كل شيء على مايرام .

كان هناك رجل قصير يرتدى ملابس سوداء وهو ضابط جاسوس لمحاكم التفتيش ، وكان جالساً بجانبه فاشترك معه فى الحديث فى أدب وقال :

— الظاهر أن السيد لا يؤمن بالخطيئة العنصرية ، لأنه إذا كان كل شيء على خير ما يمكن أن يكون ، لم يكن هناك إذن هبوط ولا عقاب .

فأجاب بانجلوس أيضاً بلهجة أكثر أدباً :

— إنى أطلب الصفح فى خضوع إلى سعادتكم ، لأن هبوط الإنسان واللعنة يدخلان بالضرورة فى أفضل الأحوال الممكنة .

— وإذن فسيدى لا يؤمن بالحرية ؟

— إن سعادتكم ستعذروننى ، فالحرية لا تتنافى مع الضرورة المطلقة ، لأنه كان من الضرورى أن نكون أحراراً ، لأن الإرادة المحددة على أى حال . . .

ولقد كان بانجلوس فى وسط عبارته عندما أشار الجاسوس برأسه إلى ساعيه الذى كان يقدم إليه بعض نبيذ بورتو .

الفصل السادس

كيف أوقدت نيران إحراق الكفار لمنع الزلازل
وكيف ضرب كانديد على ظهره

بعد ذلك الزلزال الذى هدم ثلاثة أرباع لشبونة ، لم يجد حكماء البلاد طريقة لتلافى الدمار العام أجد من أن يقدموا إلى الشعب بعض المحاكمات الدينية . فقررت جامعة كوامبر أن منظر بضعة أشخاص يحرقون بنار هادئة فى احتفال رسمى كبير يعد سراً وثيقاً لوقاية الأرض من الزلزال . وبناء على ذلك اعتقلت السلطات أحد سكان إقليم بيسكايا بتهمة أنه تزوج شريكته فى العرابة ، واثنين من البرتغاليين لأنهما عندما كانا يأكلان دجاجة صغيرة ، انتزعا منها شحم الخنزير(*) ، وبعد انتهاء الغداء أوثق الدكتور

(*) يضع الطهاة فى أوربا طبقة من دهن الخنزير فوق اللحم أو فى داخل ثقوب يصنعونها فيه لتجعله لذيذ الطعم . وانتزاع هذين البرتغاليين ذلك الشحم يدل على أنهما يهوديان ، وهذا الفرض الاستنتاجى كاف لإحراقهما . (المترجم)

بانجلوس وكانديد ، أحدهما لأنه تكلم والآخر لأنه استمع إليه بمظهر الاستحسان . وقد اقتيد كل منهما منفرداً إلى شقة مسرفة فى البرودة لاتضايق الشمس من فيها ألبتة ، وبعد ثمانية أيام ألبسوهما كليهما اللباس المسمى «سان بينيتو(*) » وزينوا رأس كل منهما بقبعة من الورق . وكانت قبعة كانديد وقميصه مرسوما عليهما لهائب مقلوبة ، وشياطين ليس لها ذيول ولا مخالب ، ولكن شياطين بانجلوس كانت تحمل مخالب وذيولا ، وكانت لهائبهما مستقيمة .

كان الجناة يسيرون فى موكب لابسين على هذا النحو وينصتون إلى واعظ جد مؤثر تتبعه موسيقى جميلة ، وبينما كان الترتيل يجرى ، كان كانديد يضرب على توقيع النغم . وقد أحرق البيسكايي والرجلان اللذان لم يريدا أن يأكلا شحم الخنزير ، وشنق بانجلوس ، ولو لم يكن ذلك من العرف المتبع . وفى اليوم ذاته زلزلت الأرض من جديد بضوضاء مفزعة .

أما كانديد فكان مرتاعا ذاهلا متحيرا داميا مرتعدا ، ولا ينى يقول لنفسه « إذا كان هذا هو أفضل العوالم الممكنة ، فما عسى

(*) سان ـ بينيتو هو قيص أصفر كانت محاكم التفتيش تلبسه للأشخاص المقضى عليهم بالإعدام قبل إحراقهم . (المترجم)

أن تكون إذن العوالم الآخر ؟ لو لم يكن إلا ضربى لأمكن التغاضى عن ذلك ، فقد ضربت قبل ذلك عند البولغاريين . ولكن ياعزيزى يانجلوس ! يا أعظم الفلاسفة ! هل كان ينبغى أن أراك تشنق دون أن أعرف لماذا ! أوه ياعزيزى غير المعمد ! ياأفضل البشر ! هل كان ينبغى أن تغرق فى المرفأ ! أوه ياآنسة كونيجوند ! ياجوهرة الفتيات ! هل كان ينبغى أن يبقر بطنك؟ »

وبينما كان يهم بالعودة — وهو لا يكاد يسند نفسه — وبعد وعظ وضرب ، بورك ، وغفر له ، وإذا امرأة عجوز تدنو منه وتقول له :

— يا بنى تشجع واتبعنى .

الفصل السابع

كيف اعتنت عجوز بكانديد وكيف وجد من أحب

لم يتذرع كانديد بالشجاعة ، ولكنه تبع العجوز إلى كوخ خرب ، فأعطته وعاء به مرهم ليدهن منه جسمه ، وقدمت إليه ما يأكله وما يشربه ، وأعارته سريراً نظيفاً نوعا ما ، وكان يوجد إلى جانب السرير ملبس كامل وقالت له :

— كل واشرب ونم ولتتول العناية بك سيدتنا داتوشا ، ومولاى القديس أنتوان البادوى ، ومولاى القديس جاك الكومبوستيلى ، وسأعود غداً .

كان كانديد — وهو لا يزال دهشا من كل ما رأى ومن كل ما تألم منه وأكثر من ذلك ، من إحسان العجوز — يريد أن يقبل يدها ، فقالت له :

— ليست يدى هى التى ينبغى تقبيلها ، إننى سأعود غداً ،

فدلك جسمك بالمرهم وكل ونم .

وعلى الرغم من هذا الشقاء الكثير ، أكل كانديد ونام .

وفى اليوم التالى أحضرت له العجوز فطوره وفحصت ظهره ودلكته هى نفسها بمرهم آخر . وبعد ذلك أحضرت له الغداء ، ثم أتت فى المساء تحمل العشاء . وفى اليوم الذى يليه قامت بالعمل على نفس الصورة المتقدمة ، وكان كانديد لا يكف عن سؤالها بقوله :

— من أنت ؟ ومن الذى ألهمك الخيرية إلى هذا الحد ؟ وأى شكر أستطيع أن أرده إليك ؟

ولم تكن المرأة الخيرة تجيب ألبتة بشىء . وأخيراً جاءت عند المساء ولم تحضر عشاء ، وإنما قالت :

— تعال معى . ولا تنبس بكلمة واحدة .

وتتأبط ذراعه وتسير معه فى الحقول ربع ميل تقريباً ، فيصلان إلى منزل منعزل محاط بالحدائق والقنوات . هناك تطرق العجوز باباً صغيراً فيفتح ، وتقود كانديد عن طريق سلم خفى ، إلى حجرة مذهبة ، وتتركه على أريكة من الديباج وتغلق الباب وتنصرف .

كان كانديد يحسب أنه يحلم ، وكان ينظر إلى كل حياته كأنها حلم مشئوم ، وإلى الوقت الراهن على أنه حلم لذيذ ، ولم

(٥ — فولتير)

تلبث العجوز أن ظهرت تسند فى عناء امرأة مضطربة ذات قامة يلوح عليها الجلال ، تتلألأ ملابسها بالأحجار الكريمة وتتغطى بمئزر ، ثم قالت العجوز لكانديد :

ـــ ارفع هذا المئزر .

فيقترب الشاب ويرفع المئزر بيد عيية . أية لحظة ! أية مفاجأة ! يخيل إليه أنه يرى الآنسة كونيجوند . والواقع أنه كان يراها ، إنها هى نفسها . إن القوة تعوزه ولا يستطيع أن ينبس ببنت شفة . وسرعان ما يهوى تحت قدميها وتهوى كونيجوند على الأريكة وهنا تغرقهما العجوز بمياه روح الكحول ، فيعودان إلى وعيهما ويتحادثان . وتكون أول الأمر كلمات متقطعة ، وأسئلة وأجوبة تتلاقى ، وتنهدات وعبرات وصيحات ، فتوصيهما العجوز بالإقلال من الضوضاء وتتركهما لحالهما . وإذ ذاك يقول كانديد لكونيجوند :

ـــ ماذا ! أهى أنت ؟ ألا تزالين حية ، وأعثر عليك فى البرتغال أفلم يعتد عليك إذن ؟ أو لم يبقر بطنك كما أكد لى الفيلسوف بانجلوس ؟

ـــ بلى ، غير أن الإنسان لا يموت دائماً من هاتين الحادثتين .

ـــ ولكن هل قتل أبوك وأمك ؟

فأجابت كونيجوند باكية :

— ليست تلك سوى الحقيقة بعينها .

— وأخوك ؟

— لقد قتل أخى أيضا .

— ولماذا أنت فى البرتغال ؟ وكيف عرفت أنى فيها ؟ وبأى حادث غريب أتيت بى إلى هذا المنزل ؟

— سأقول لك كل ذلك ولكن ينبغى قبل كل شىء أن تنبئنى بجميع ما حدث لك منذ القبلة البريئة التى منحتنى إياها ، والوكزات التى تلقتها .

أطاعها كانديد باحترام عميق ، ولو أنه كان فى ذهول ، ولو أن صوته كان ضعيفا ومضطربا ، ولو أن فقرات ظهره كانت لاتزال تؤلمه قليلا ، فقد قص عليها بأكثر الطرائق سذاجة ، كل ما شعر به منذ لحظة فراقهما .

(يقص ڤولتير بعد ذلك كيف أن كانديد قد فقد كونيجوند مرة ثانية ، وكيف أنه لم يجد بدأ من الفرار إلى أمريكا حيث يزور مع خادمه كاكامبو بلاد ايلدورادو ، وكيف أنه أحضر من تلك البلاد بعض الأحجار الكريمة التى منحته شيئا من الثراء . وكيف أنه ضم الفيلسوف مارتان الذى كان متشائما بقدر ماكان بانجلوس متفائلا ، وكيف أنه زار أوربا فى صحبة مارتان ، باحثاً فى كل موضع فيها عن عزيزته كونيجوند ، وسنلتقى بهما الآن فى البندقية .)

الفصل الخامس والعشرون

زيارة فى منزل السيد بوكوكيرانت الشريف البندقى

ذهب كانديد ومارتان فى زورق على نهر برانتا ووصلا إلى قصر الشريف بوكوكيرانت. كانت الحدائق منسقة ومزدانة بتماثيل جميلة من المرمر، وكان القصر مرسوما بهندسة بديعة.

استقبل سيد الدار، وهو رجل فى الستين من عمره واسع الثراء، ذينك المستطلعين فى أدب جم، ولكن بقليل من الحماس، مما أقلق كانديد ولم يضجر مارتان.

وفى البداية أتت فتاتان ترتديان ملابس نظيفة فقدمتا مغلى الشكولاتة بصورة أبرزت رغوتها، فلم يستطع كانديد أن يمنع نفسه من الثناء عليهما للطفهما، وحذقهما فقال السيناتور بوكوكيرانت:

— إنهما مخلوقتـــان طيبتان نوعا ما، إنى جد متعب من سيدات المدينة، من دلالهن، وغيرتهن، ومشاجرتهن، وسوء أمزجتهن، وصغارهن، وكبريائهن وحماقتهن، ومن القصائد التى

ينبغي إنشاؤها أو الأمر بإنشائها من أجلهن ، ولكن هاتين الفتاتين بدأتا أخيرا تضجرانني كثيرا .

وبعد الغداء جعل كانديد يتنزه في قاعة طويلة ، فدهش من جمال اللوحات وسأل من عمل أي الأساتذة كانت اللوحتان الأوليان فأجاب السيناتور بقوله :

— إنهما من إنتاج رافائيل ، وقد اشتريتهما بثمن غال بدافع الزهو منذ بضعة أعوام لأنه يقال إنهما أجمل مايوجد في إيطاليا ، ولكنهما لا تروقانني ألبتة ، فلونهما قاتم ، والوجوه فيهما ليست مستديرة بالقدر الكافي . كما أنها لا تبدو واضحة ، والملابس لا تشبه الأقمشة في شيء . وبالإجمال إني — مهما يقال عنهما — لا أجد فيهما محاكاة حقيقية للطبيعة . وأنا لا أحب أية لوحة إلا حين أحسب أني أرى فيها الطبيعة ذاتها ؛ وهذا النوع من اللوحات لا يوجد ولذا فإن لدى كثيراً من اللوحات ولكني لم أعد أنظر إليها .

وفي أثناء انتظار العشاء أمر پوكوكيرانت بتوقيع شيء من الأنغام الموسيقية التي ألفاها كانديد لذيذة . ولكن السيناتور قال له :

— إن هذه الضوضاء يمكن أن تسلي نصف ساعة ، وإذا استمرت

وقتاً أطول من ذلك أتعبت الجميع ، ولو أنه لا يجرؤ أحد على الاعتراف بهذا . فالموسيقى اليوم لم تعد سوى فن توقيع أشياء عسيرة ، والعسير لا يروق إذا طال . وكان من الممكن أن أحب الأوبرا لو أن القائمين عليها لم يصروا على السر الذى جعل منها مسخاً يثير أعصابى . وليذهب من يشاء لرؤية تلك المآسى الموسيقية الرديئة ، والتى لم تصنع مناظرها إلا لكى تعرض — دون أية مناسبة — أغنيتين أو ثلاثا لا هم لها إلا إبراز حنجرة إحدى الممثلات لينعم بالسرور من يود أو من يستطيع عندما يرى خصياً يترنم بدور قيصر أو كاتون ويسير فى غير حذق فوق خشبة المسرح . أما أنا فقد تخليت عن هذه الصغائر التى تؤلف اليوم مجد إيطاليا ، والتى يدفع الملوك ثمنها غالياً .

كان كانديد يناقش هذه الآراء قليلا ، ولكن فى رزانة ، أما مارتان ، فإنه كان على وئام تام فى الرأى مع السيناتور .

جلسوا إلى المائدة وبعد عشاء فاخر دخلوا المكتبة . وعندما رأى كانديد عمل هوميروس مجلداً تجليداً بديعاً ، أثنى على السيناتور الماجد من أجل ذوقه الحسن وقال :

— ها هو ذا الكتاب الذى كان يؤلف مباهج پانجلوس العظيم أفضل فلاسفة ألمانيا .

فأجاب پوكوكيرانتى فى فتور :

— إنه لا يؤلف مباهجى ولقد حملنى أساتذتى فيما مضى على أن أظن أنى أبتهج بقراءته ، ولكن هذا التكرار المستمر للمعارك التى تتشابه جميعها ، وهؤلاء الآلهة الذين يعملون دائماً لكيلا لا يعملوا شيئاً حاسماً ، وهيلين التى كانت موضوع الحرب ، والتى ليست سوى ممثلة ذات دور ضئيل فى المسرحية ، وطروادة هذه التى تحاصر ولا تؤخذ ، كل ذلك كان يسبب لى أشد أنواع الضجر المميت وكثيرا ما سألت العلماء عما إذا كانوا يضجرون مثلى بهذه المطالعات ، فاعترف لى كل الأشخاص المخلصين بأن الكتاب يسقط من أيديهم حين يطالعونه ، ولكن ينبغى وجوده دائما فى مكتباتهم باعتباره أثرا من آثار العصور الغابرة ، وكأنه تلك المدالية الصدئة التى لا يمكن التعامل فيها .

فقال كانديد :

— إن سعادتك لا ترى هذا الرأى فى فيرچيل ؟

— إنى أوافق على أن الكتب : الثانى والرابع والسادس

من إيندته بديعة . أما فيما يتعلق بأشخاصه : إينيوس التق ، وكلووانت القوى ، وأكاتيس الصديق ، وأسكنيوس الصغير ، والملك لاتينوس الغبي ، وآماتا البورجوازية ، ولا ڤينيا التافهة ، فإنى لا أعتقد أنه يوجد شيء أكثر منهم فتورا ولا أشد مدعاة للكراهية . وإنى أفضل تاسو وقصص آريوستو رغم أنها مضجرة .

— هل أجرؤ على أن أسألك يا سيدى عما إذا كنت تشعر بكثير من السرور فى قراءة هوراس .

— يوجد لديه من الحكم التى يستطيع رجل الطبقة العالية أن يستفيد منها ، والتى بتركيزها فى شعر قوى — تستقر بسهولة فى الذاكرة . ولكنى لا أعبأ إلا قليلا جدا برحلته إلى براند وبوصفه لغداء ردىء وبالمشاجرة التى تشبه مشاجرات الحمالين بين من يدعى يوبيلوس الذى كانت كلماته — فيما يقول هوراس — مليئة بالقبح ، وآخر كانت كلماته نوعا من الخل . ولم أقرأ إلا بامتعاض شديد أشعاره الفظة التى صاغها ضد عجائز من النساء وضد بعض الساحرات . إن الحمقى يعجبون بكل شيء فى مؤلفات كاتب مشهور . أما أنا فإننى لا أقرأ إلا لنفسى ، ولا أحب إلا ما يصلح لاستعمالى .

كان كانديد — وهو الذى ربى على ألا يحكم ألبتة على

أى شيء بذوقه الخاص — كثير الدهش مما سمع . بينما كان مارتان يجد طريقة تفكير پوكوكيرانت معقولة بالقدر الكافى .

وهنا يستأنف كانديد قائلا :

— ها هو ذا كتاب لشيشرون وأنا أعتقد أنك — فيما يتعلق بهذا الرجل العظيم — لا تمل من مطالعته .

— أنا لا أقرؤه ألبتة ، إذ ماذا يعنينى من مرافعته لصالح رابيريوس أو كلوانتيوس ؟ حسبي القضايا التى أحكم فيها . كما أن من الممكن أن أستسيغ مؤلفاته الفلسفية ، ولكنى حين رأيت أنه يرتاب فى كل شيء استنتجت أنى أعرف قدر ما يعرف ، وأنى لست فى حاجة إلى أحد لكى أكون جاهلا .

وإذ ذاك صاح مارتان قائلا :

— آه ! ها هى ذى ثمانون مجلداً من مجموعات أحد المجامع العلمية ، فقد يكون بينها شيء جيّد .

فأجاب پوكوكيرانت قائلا :

— كان يمكن ذلك لو أن فردا واحداً من مؤلفى هذا الخليط كان قد اخترع فقط فن صناعة الدبابيس ، ولكنه لا يوجد فى كل هذه الكتب سوى نظريات عابثة ، وليس فيها شيء واحد مفيد .

فيقول كانديد :

-- ما أكثر المسرحيات التى أراها هنا بالإيطالية والإسبانية والفرنسية .

-- نعم إنه يوجد منها ثلاثة آلاف ، ولكن لا يوجد ثلاث عشرات جيدة . أما هذه المجموعة من المواعظ التى لاتساوى كلها مجتمعة ، صفحة واحدة من سينكا ، وأما هذه المجلدات الضخمة من اللاهوتيات ، فمن الواضح أنى لا أفتحها ألبتة ، لا أنا ، ولا أحد آخر .

وحينئذ لمح مارتان رفوفا محملة بكتب إنجليزية فقال :

-- إنى أعتقد أن جمهوريا عريقاً مثلك يجب أن يغتبط بأكثر هذه المؤلفات التى كتبت بحرية بالغة .

-- نعم إنه لجميل أن يكتب المرء ما يعتقد ، فهذه هى ميزة الإنسان ، أما فى كل بلادنا الإيطالية فإن المرء لا يكتب إلا مالا يعتقد ، أى أن من يقيمون فى وطن القياصرة والأباطرة الأنتونين ، لا يجرءون على أن يكون لهم فكرة دون أن يأذن لهم أحد رهابنة اليعقوبيين . وإذن فقد كان من الممكن أن أكون مسروراً من الحرية التى تلهم العباقرة الإنجليز لو أن الهوى

والروح الحزبية لم يفسدا ما هو جدير بالاعتبار فى هذه الحرية النفيسة .

وعندما لمح كانديد كتاب ميلتون Milton سأل عما إذا كان بوكوكيرانت لا ينظر إلى هذا المؤلف على أنه رجل عظيم ، فأجابه بقوله :

— من ؟ أتعنى هذا البربرى الذى كتب شرحا طويلا للفصل الأول من سفر التكوين فى عشرة كتب من شعر ثقيل ؟ ذلك المحاكى الفظ للإغريق الذى يشوه صورة بدء الخلق ، والذى يرى موسى وهو يصور الموجود الأزلى وهو يحدث العالم بكلمته فيجعل المسيح يتخذ فرجارا كبيرا من أحد صوانات السماء ليرسم صنعه . هل يمكننى ، أنا ، أن أحترم رجلا أفسد الجحيم وشياطين تاسو وأخفى إبليس تارة فى صورة ضفدعة ، وأخرى فى صورة قزم وجعله يردد الحديث الواحد مائة مرة ، والذى جعله يناقش المسائل اللاهوتية وجعل المدافع تنطلق فى السماء بأيدى الشياطين ، محاكيا على هذا النحو اختراع الأسلحة النارية الهزلى الذى ابتدعه أريوستو ولكن فى صورة جدية ؟ الحق لا أنا ولا أى أحد فى إيطاليا استطاع أن يرتضى هذا الهذيان المخزى ، فالفصل الذى يعالج « زواج الخطيئة والموت » والحيات التى تلدها الخطيئة (من

شأنه أن يصيب من وهب شيئاً من الذوق بالاشمئزاز .) وأما وصفه الطويل للمستشفى فليس خليقاً إلا بأحد حفارى القبور .
ولا جرم أن هذه القصيدة الغامضة الغريبة المقززة ، قد باءت بالاحتقار منذ يوم ولادتها ، وإنى أعاملها اليوم ، كما عوملت فى وطنها من معاصريها . على أنى أقول ما أعتقده ، وإنى لا أعبأ إلا قليلا بأن يفكر الآخرون مثلى .

كان كانديد مكتئباً من هذه الأحاديث لأنه كان يحترم هوميروس ويحب ميلتون قليلا ، وأخيراً قال لمارتان بصوت خافت :

— وا أسفاه ! إنى أخشى أن يكون هذا الرجل منطويا على احتقار متطرف لشعرائنا الألمان .

فأجاب مارتان بقوله :

— لو حدث ذلك لما كان فيه أى بأس .

وإذ ذاك كان كانديد يقول متمتما :

— ما أسمى هذا السيناتور بوكوكيرانت ! لا شيء يمكن أن يروقه .

وبعد أن فحصوا جميع الكتب على هذا النحو ، نزلوا إلى الحديقة ، فأثنى كانديد على كل نواحى جمالها ، ولكن ربها أعلن قائلا :

— إنى لا أعرف شيئاً بلغ من سوء الذوق مبلغ هذه الحديقة

وليس لدينا هنا سوى ترهات ، ولكنى سأعمل منذ الغد على استنبات حديقة أجمل من هذه شكلا .

وعندما استأذن المستطلعان من سعادته قال كانديد لمارتان :

ــ والآن أنت توافق على أن هذا هو أسعد جميع الرجال ، لأنه يسمو على كل ما يملك .

ــ أفلا ترى أنه يتمعض من كل ما يملك ؟ لقد قال أفلاطون منذ زمن طويل ، ليست أجود المعدات هى التى تنبذ جميع الأطعمة .

ــ ولكن أليس يجد المرء سروراً فى أن ينقد كل شىء ، وفى أن تشعر بوجود المثالب حيث يحسب الآخرون أنهم يرون ألوانا من الجمال ؟

ويجيب مارتان بقوله :

ــ معنى هذا أن السرور يوجد فى ألا يكون لدى المرء سرور.

ــ إذا كان الأمر كذلك فإنه لا سعيد إلا أنا .

ــ إنه لشىء جيد دائما أن يأمل المرء .

ومع ذلك فقد طفقت الأيام والأسابيع تمضى بكانديد وكاكامبو خادمه لا يعود ، فغرق فى ألمه إلى حد أنه لم يشعر بأن باكيت والأخ جيروفليه لم يأتيا لمجرد تقديم الشكر له .

الفصل السادس والعشرون

حول عشاء حضره كانديد ومارتان

مع ستة أجانب ، ومن كان هؤلاء الأجانب

فى إحدى الأمسيات بينما كان كانديد يتبعه مارتان ذاهبين للجلوس إلى المائدة مع الأجانب الذين كانوا يقيمون فى نفس الفندق الذى يقطنه ، ألم به من الخلف رجل يشبه وجهه لون السناج فتناول ذراعه وقال له :

— استعد للسفر معنا ، ولا يفوتنك ذلك .

ويلتفت كانديد فيرى كاكامبو ، ولم يكن هناك مرأى آخر غير مرأى كونيجوند يمكن أن يدهشه ويروقه أكثر من ذلك ، فقد أوشك أن يجن من الفرح فعانق صديقه العزيز وقال له :

— إن كونيجوند هنا فى أغلب الظن ؟ أين هى ؟ اذهب بى إليها لكى أموت من السرور برؤيتها .

— ليست كونيجوند هنا وإنما هى فى القسطنطينية .

— أيتها السماء ! أهى فى القسطنطينية ؟ ولكن لو كانت فى الصين لجريت إليها ، فلنرتحل .

— سنرتحل بعد العشاء ، ولا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك ، فأنا عبد وسيدى ينتظرنى ، وينبغى أن أكون فى خدمته على المائدة ، لا تقل كلمة واحدة ، بل تعش وكن على استعداد .

كان كانديد موزع القلب بين السرور والألم ، مسحوراً بأن رأى من جديد رسوله الوفى ودهشاً من سماعه أنه عبد ، ومليئا بفكرة العثور على حبيبته وكان قلبه مهتاجا ، ونفسه مضطربة . وقد جلس إلى المائدة مع مارتان الذى كان ينظر فى هدوء إلى كل هذه الأحداث ، ومع الأجانب الستة الذين كانوا قد أتوا لقضاء أيام الكارنفال فى البندقية .

كان كاكامبو يقدم المشروبات إلى سيده الذى لم يكن غير واحد من أولئك الأجانب ، فدنا من أذنه عند نهاية المائدة وقال له :

— مولاى ، تستطيعون جلالتكم أن تسافروا متى أردتم ، فالسفينة على استعداد .

وعلى أثر هذه الكلمات خرج ، فتبادل الحاضرون النظرات

فيما بينهم دون أن ينبسوا ببنت شفة ، وإذا بخادم آخر يقترب من سيده ويقول له :

— مولاى إن كرسى[1] جلالتكم فى بادوا ، وإن الزورق مستعد .

أشار السيد إلى خادمه فانصرف ، وتبادل الحاضرون النظرات أيضا ، وتضاعف الدهش العام . وكذلك دنا خادم ثالث من أجنبي ثالث وقال له :

— مولاى صدقنى أنه لا ينبغى لجلالتكم أن يمكث هنا أكثر من ذلك ، وسأعد كل شىء .

وعلى أثر ذلك اختفى . وعندئذ لم يشك كانديد ومارتان فى أن ذلك نوع من مزاح الكارنفال . ولم يلبث أن رأيا خادما رابعا يدخل ويقول للسيد الرابع :

— سترتحل جلالتكم متى تريد .

ثم خرج كالآخرين ، وقال الخادم الخامس مثل تلك العبارات للسيد الخامس . ولكن الخادم السادس تحدث بعبارة تختلف عن

---

(١) المراد بالكرسى هنا محمل مغلق صغير يجلس فيه الأثرياء ويحمله رجلان من أتباعهم من مكان إلى مكان . (المترجم)

ذلك إلى الأجنبي السادس الذى كان على مقربة من كانديد ، إذ قال له :

— فى الحق يامولاى ، أن رب الفندق لم يعد يقبل تأجيل الدفع بالنسبة إلى جلالتكم ولا بالنسبة إلى أيضا ، ويمكن أن نعتقل فى هذه الليلة أنت وأنا ، ومن ثم فإنى سأدبر مسائلى فوداعا .

وعندما اختفى جميع الخدم بقى الأجانب الستة وكانديد ومارتان فى صمت عميق ، وأخيراً قطع كانديد هذا الصمت فقال :

— أيها السادة ، هذه دعابة غريبة ، لماذا أنتم جميعا ملوك؟ أما فيما يتعلق بى فإنى أعترف لكم بأنى لست أنا ولا مارتان من الملوك .

وحينئذ تولى سيد كاكامبو الكلام فقال بالإيطالية :

— إننى لست أمزح ، فأنا أدعى أحمد الثالث ، وقد كنت سلطانا كبيرا عدة أعوام بعد أن خلعت أخى وخلعنى ابن أخى وقطعت السلطات أعناق وزرائى ، أما أنا فأنهى حياتى فى القصر العتيق ، ويسمح لى ابن أخى السلطان محمود العظيم بأن أسافر أحيانا بسبب صحتى . وقد أتيت لأقضى أيام الكرنفال فى البندقية .

وكان هناك شاب على مقربة من أحمد فتحدث بعده قائلا :

(٦ — فولتير)

— إننى أدعى إيڤان وكنت إمبراطوراً لـكل روسيا، وقد خلعت وأنا لا أزال فى المهد صبيا ، وسجن أبى وأمى ، وربيت فى السجن . ويسمح لى أحيانا بالسفر مصحوبا بحراس ، وقد أتيت لأقضى أيام الـكرنڤال فى البندقية .

وقال الثالث :

— إننى شارل إدوارد ملك إنجلترا ، وقد تنازل لى أبى عن حقوقه فى المملكة ، فقاتلت لأدافع عن هذه الحقوق وهزمت وانتزعت السلطات قلوب ثمانمائة من أنصارى وزج بى فى السجن . وهأنذا ذاهب إلى روما لأزور والدى الملك المخلوع مثلى ومثل جدى ، وقد أتيت لأقضى أيام الـكرنڤال فى البندقية .

وإذ ذاك تولى الرابع الـكلام فقال :

— إننى ملك بولونيا وقد حرمنى مصير الحرب دولتى الوراثية ، وكان أبى قد نـكب بنفس الهزائم ، وإنى مذعن للإرادة الإلهية كالسلطان أحمد والإمبراطور إيڤان والملك شارل إدوارد الذين أدعو الله أن يطيل حياتهم . وقد أتيت لأقضى أيام الـكارنڤال فى البندقية .

وقال الخامس :

— إننى أيضا ملك بولونيا وقد فقدت مملـكتى مرتين ، ولـكن

العناية منحتنى دولة أخرى عملت فيها من الخير أكثر من كل ما استطاع ملوك سارمات بجتمعين عمله على شاطىء الفيستولا . وإنى أذعن أيضا للعناية ، وقد أتيت لأقضى أيام الكارنفال فى البندقية .

وبقى الملك السادس فقال :

— أيها السادة ، إننى لست مولى عظيما مثلكم ، ومع ذلك فقد كنت ملكا كغيرى إننى تيودور وقد انتخبت ملكا فى كريشيقة وأطلقوا على اسم صاحب الجلالة ، والآن لا أكاد أدعى بالسيد . وكنت آمر بسك النقود واليوم لا أملك فلسا ، وكان لدى وزيران ، والآن لا أكاد أملك خادما ؛ ولقد رأيت نفسى على العرش وظللت فى لندن زمنا طويلا فى السجن أفترش القش . وإنى أخشى أن أعامل بالمثل هنا ، ولو أنى أتيت مثل جلالتكم أقضى أيام الكارنفال فى البندقية .

استمع الملوك الخمسة الآخرون إلى هذا الحديث فى إشفاق نبيل ، وقدم كل منهم عشرين سيكانا ذهبيا إلى الملك تيودور ليشترى بها ملابس وأقمصة ، وأهدى إليه كانديد ماسة قيمتها ألفا سيكان ، فجعل الملوك الخمسة يتساءلون : « من يكون إذن هذا الشخص

البسيط الذى تسمح له حالته بأن يعطى مقدار ماأعطاه كل واحد منا مائة مرة ، ويعطى فعلا ؟ » .

وفى اللحظة التى كانوا يغادرون فيها المائدة وصل إلى نفس الفندق أربعة أمراء فقدوا أيضا إماراتهم بسبب الحروب ، وقد أتوا ليقضوا مابقى من أيام الكارنفال فى البندقية .

ولكن كانديد لم ينتبه لهؤلاء القادمين الجدد . فلم يكن مشغولا إلا بالذهاب للعثور على عزيزته كونيجوند فى القسطنطينية .

الفصل السابع والعشرون

رحلة كانديد إلى القسطنطينية

كان كاكامبو الوفى قد ظفر من ربان السفينة التركى الذى سيحمل السلطان أحمد إلى القسطنطينية، أن يقبل كانديد ومارتان فى سفينته. وقد صعد إليها كلاهما بعد أن سجد أمام سموه البائس. وفى الطريق جعل كانديد يقول لمارتان:

— هاهم أولاء مع ذلك ستة ملوك مخلوعين تعشينا معهم! هذا إلى أنك قد قدمت الإحسان إلى واحد منهم وقد يكون هناك أمراء كثيرون آخرون أشد تعاسة. أما فيما يتعلق بى فإننى لم أفقد إلا مائة كيس وهأنذا أطير لكى أكون بين ذراعى كونيجوند. وإنى أعيد ذلك مرة أخرى ياعزيزى مارتان أن بانجلوس كان محقا حين قرر أن كل شىء حسن.

— إننى أتمنى ذلك.

— ها هى ذى حادثة لا يكاد العقل يتصورها، تلك التى

رأيناها فى البندقية ، إذ لم ير أحد أو يسمع أن ستة ملوك مخلوعين يتعشون معا فى حانة .

— ليس هذا أشد شذوذا عن المألوف من أكثر الأشياء التى حدثت لنا . إنه من الأمور العادية جدا أن يخلع الملوك ، وفيما يتعلق بالشرف الذى حزناه بالعشاء معهم فإن ذلك أمر تافه لا يستحق أن يسترعى انتباهنا .

لم يكد كانديد يستقر فى السفينة حتى قفز إلى عنق خادمه القديم ، أو صديقه كاكامبو وقال له :

— والآن ماذا تصنع كونيجوند ؟ أهى لا تزال إحدى عجائب الجمال ؟ وهل لا تزال تحبنى ؟ وكيف صحتها ؟ لا ريب أنك قد اشتريت لها قصرا فى القسطنطينية ؟

— سيدى العزيز ، إن كونيجوند تغسل الأوانى على شاطىء « بروبونتيد » عند أمير ليس لديه سوى قليل من الأوعية ، ففى الواقع إنها جارية فى منزل ملك قديم يدعى راجوسكى يعطيه السلطان الأعظم التركى ثلاث قطع فضية يوميا فى ملجئه . ولكن أشد من ذلك حزنا أنها فقدت جمالها ، وأنها صارت دميمة بصورة فظيعة .

ــ آه ! سواء أكانت جميلة أم دميمة ، فإني رجل شريف ، وإن واجبي هو أن أحبها دائماً ، ولكن كيف هوت إلى هذا الحد من الهوان مع الملايين الخمسة أو الستة التي حملتها لها .

ــ هذا حسن ، أفلم يكن ينبغي أن أعطي حاكم بوينس أيرس السينيور دون فيرناندو ديبارا ايفيجورا ماسكارينيس لامبوردوس ايسوزا بعض الشيء لنيل الإذن باسترداد الآنسة كونيجوند ؟ أو لم يجردنا أحد القراصنة بكل شجاعة من جميع ما تبقى لنا ؟ أو لم يأخذنا هذا القرصان إلى رأس ماتاپان ، وميلوس ، ونيكاريا ، وساموس ، وبطرى ، والدردنيل ، ومرمرة ، وسقطرى ؟ والآن تخدم كونيجوند والعجوز عند هذا الأمير الذي تحدثت إليك عنه ، وأنا عبد للسلطان المخلوع .

وهنا يصيح كانديد قائلا :

ــ يالها من كوارث فظيعة مرتبط بعضها ببعض ! ولكن على أية حال لايزال لدى بضع ماسات وسأخلص كونيجوند في سهولة . إن من الخسارة أن تكون قد صارت دميمة إلى هذا الحد .

وعلى أثر ذلك التفت إلى مارتان وقال له :

ــ من تعتقد أنه أجدرنا بالرثاء أهو السلطان أحمد أم

الإمبراطور إيڤان ، أم الملك شارل إدوارد أم أنا ؟

ــ لا أدرى من ذلك شيئاً ، إذ ينبغى أن أكون فى داخل قلوبكم لكى أعرف .

ــ آه ! لو أن بانجلوس كان هنا لعرف ذلك ، ولأعلمنا به .

ــ لست أدرى بأى ميزان كان بانجلوسك هـذا سيزن تعاسات الناس ، ويقدر آلامهم . وإنمـا كل ما أفترضه هو أنه يوجد عدة ملايين من الناس أجدر بالرثاء مائة مرة من الملك شارل إدوارد والإمبراطور إيڤان والسلطان أحمد .

وبعد أيام قليلة وصلت السفينة إلى قناة البحر الأسود . وقد كان أول عمل بدأ به كانديد هو افتداء كاكامبو بثمن جدّ غال . ولم يشأ أن يضيع الوقت فصعد مع رفيقيه إلى سفينة ذات مجاذيف لـكى يذهب إلى شاطىء پروپونتيد لإحضار كونيجوند مهما كانت حالتها من الدمامة .

كان بين مجموعة المجذفين شقيان يسيئان التجذيف جداً ، وكان الربان يعطيهما من وقت إلى آخر بضع ضربات بعصا من عصب الثور فوق أكتافهما العارية . وبحركة طبيعية نظر إليهما كانديد بانتباه أكثر من انتباهه إلى الأشقياء الآخرين ، ودنا منهما بشفقة . وهنا لاحظ أن بعض ملامح وجهيهما المشوهين ، تبدو

له متشابهة مع ملامح پانجلوس وذلك اليسوعي التعس أو ذلك البارون شقيق الآنسة كونيجوند ، فأثرت هذه الفكرة في نفسه وأحزنته ، ثم نظر إليهما أيضاً بانتباه أشد وقال لكاكامبو :

— الحق أنني لو لم أكن رأيت الأستاذ پانجلوس يشنق ، ولو لم أكن قد ارتكبت جريمة قتل البارون لاعتقدت أنهما هما اللذان يجذفان في هذه السفينة .

وعندما سمع الشقيان اسمي البارون وپانجلوس صرخا صرخة عالية وتوقفا عن العمل وتركا مجاذيفهما تهوى . وإذ ذاك جرى إليهما الربان وتضاعفت ضربات عصب الثور . فصاح كانديد قائلا :

— كف ! كف ! يا سيدي إنني سأعطيك من المال القدر الذي تريده .

وهنا جعل أحد الشقيين يقول :

— ماذا ! أهذا هو كانديد ؟

وأخذ الآخر يقول أيضاً :

— ماذا ! أهذا هو كانديد ؟

وحينئذ استأنف كانديد قائلا :

— أهذا حلم ؟ أأنا مستيقظ ؟ أأنا في هذه السفينة ؟

أهذا هو السيد البارون الذى قتلته ؟ أهذا هو الأستاذ پانجلوس الذى رأيته يشنق ؟

فأجابا قائلين :

ـ نحن أنفسنا ! نحن أنفسنا !

فقال مارتان :

ـ ماذا ! أهذا هو الفيلسوف العظيم ؟

وهنا وجه كانديد الحديث إلى الربان قائلا :

ـ يا سيدى الربان ، كم تريد من المال فدية لسيدى دى ڤونديرتان ترونك ، أحد أوائل بارونات الإمبراطورية والسيد پانجلوس أعمق ميتافيزيقيى ألمانيا ؟

ـ أيها الكلب المسيحى ! مادام أن هذين الكلبين الشقيين المسيحيين هما بارون وميتافيزيقى ، وأغلب الظن أن هذين لقبان عظيمان فى بلادهما ، فإنك ستدفع خمسين ألف سيكان .

ـ ستنال ذلك يا سيدى ، فأرجعنى فى سرعة البرق إلى القسطنطينية وسأدفع إليك فوراً . ولكن لا ، اذهب بى أولا إلى حيث الآنسة كونيجوند .

غير أن الربان كان قد استجاب لأول عرض من كانديد

وأدار مقدم السفينة نحو المدينة ودفع العمال إلى أن يجذفوا بأسرع من الطائر حين يشق الهواء .

عانق كانديد البارون وپانجلوس مائة مرة وهو يقول لهما :

ـــ وكيف ؟ ألم أقتلك ياعزيزى البارون ؟ وأنت ياعزيزى پانجلوس ، كيف تحيا بعد أن شنقت ؟ ولماذا حكم عليكما معا فى تركيا ؟

فقال البارون :

ـــ أحقاً أن شقيقتى العزيزة موجودة فى هذه البلاد ؟

فأجابه كاكامبو بأن نعم ، بينما انبرى پانجلوس يصيح قائلا :

ـــ إننى إذن أرى من جديد عزيزى كانديد !

كانوا جميعاً يتعانقون ويتحدثون فى آن واحد ، وفى أثناء ذلك كانت السفينة تطير وكانوا قد وصلوا إلى المرفأ ، فاستحضروا يهودياً باع له كانديد بخمسين ألف سيكان ، ماسة تساوى مائة ألف ، وأقسم اليهودى بإبراهيم أنه لا يستطيع أن يدفع فيها أكثر من ذلك . وعلى أثر هذا دفع الفدية عن پانجلوس والبارون . فقبل الأول يدى محرره وبللهما بدموعه ، وشكره الثانى بإشارة من رأسه ، ووعده بأن يرد إليه هذا المال فى أول فرصة تسنح له ، ثم قال :

— ولكن هل من الممكن أن تكون شقيقتي في تركيا ؟

فأجاب كاكامبو بقوله :

— لا شيء آكد من ذلك مادامت تغسل الأواني عند أحد أمراء ترانسيلفانيا .

وعند ذلك استحضروا يهوديين وباع كانديد أيضاً لهما بعض الماسات ثم أقلعوا من جديد في سفينة أخرى ليذهبوا إلى تخليص الآنسة كونيجوند.

الفصل الثامن والعشرون

ما حدث لكانديد وكونيجوند وبانجلوس ومارتان وهلم جرا

كان كانديد يقول للبارون :

ــ صفحا مرة أخرى أيضاً أيها الأب المحترم ، عن أنى طعنتك بسيفى طعنة كبرى اخترقت جسمك .

ــ لنترك الحديث عن هذا فقد كنت مفرطاً فى العنف ، وإنى أعترف بذلك ، ولكن ما دمت تريد أن تعرف بأية مصادفة رأيتنى هنا بين المحكوم عليهم ، فسأقول لك إنى ، بعد أن شفيت من جرحى على يد الأخ صيدلى المدرسة ، هاجمتنى زمرة من الإسبان واختطفتنى . وزج بى فى السجن فى بوينس أيرس فى الوقت الذى ارتحلت فيه شقيقتى . فطلبت أن أعود إلى روما لأكون على مقربة من الأب العام . وإذ ذاك عينت مرشداً للسيد سفير فرنسا فى القسطنطينية . ولم تكد

تمضى ثمانية أيام على تسلمى مهام منصبي ، حتى ألفيت نفسى فى إحدى الأمسيات مع ضابط شاب حسن التكوين من ضباط القصر . وكان الطقس شديد الحرارة ، فأراد الشاب أن يستحم ، وانتهزت هذه الفرصة لأستحم أنا أيضاً . ولم أكن أعرف أن من الجرائم الرئيسية بالنسبة إلى المسيحى أن يوجد عارياً مع شاب مسلم . وحينئذ مر أحد القضاة بضربى مائة عصا فوق باطنى قدمى وحكم على بالأشغال الشاقة . ولكنى أود أن أعرف لماذا توجد شقيقتى فى مطبخ أمير من أمراء ترانسيلڤانيا لاجىء عند الأتراك .

فقال كانديد لبانجلوس :

— ولكن أنت يا عزيزى پانجلوس كيف أمكن أن أراك ؟

— فى الحق أنك رأيتنى أشنق ، بينما كان يجب طبيعياً أن أحرق . ولكنك تذكر أن المطر كان يهطل مدراراً عندما كانوا سيشوونني . كانت الأعاصير عنيفة إلى حد أنهم يئسوا من إيقاد النار فشنقونى لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أفضل من ذلك . وقد اشترى جراح جسمى وحمله إلى منزله لتشريحه ، فأجرى لى أول الأمر تشريطاً على صورة الصليب من السرة إلى الترقوة ؛

بيد أنه لا يمكن أن يكون هناك أحد قد أسيء شنقه كما حدث لى ، ففى الواقع أن جلاد محاكم التفتيش المقدسة كان يحرق الناس بطريقة جديرة بالإعجاب ، ولكنه لم يكن متعوداً على الشنق ، فالحبل كان مبتلا فساء انزلاقه وفشل انعقاده ، وباختصار كنت لا أزال أتنفس . حملنى التشريط الصليبي على أن أصرخ صرخة عالية إلى حد جعل الجراح يسقط منقلباً على ظهره ، وحسب أنه يشرح الشيطان ففر محتضراً من الخوف . وكبا أيضاً فوق السلم فى أثناء فراره . وأسرعت زوجته من إحدى الغرف المجاورة جارية نحو الضجيج ، فرأتنى فوق المشرحة ممتداً ورأت تشريطى الصليبي ، فكانت أيضاً أكثر خوفاً من زوجها ، وفرت فسقطت فوقه . وعندما عادا إلى وعيهما قليلا سمعت زوجة الجراح تقول له :

— يا صديقى كيف يدور بخلدك أن تشرح هرطيقا ؟ ألا تعرف أن الشيطان يحل دائماً فى أجسام هؤلاء الناس ؟ سأحضر سريعاً قسيساً ليعزم عليه .

ارتعت من هذه الكلمة وجمعت القليل الذى بقى لى من

القوة لأصيح قائلا :

ــ أشفقا على !

وأخيراً تجرأ الحلاق البرتغالى وخاط جلدى ، بل إن زوجته اعتنت بى . وبعد خمسة عشر يوماً وقفت على قدمى ، ووجد الحلاق لى عملا ، فألحقنى بخدمة فارس من فرسان مالطة كان فى طريقه إلى البندقية . ولكن لما كان سيدى الجديد لا يملك ما يدفعه لى فقد التحقت بخدمة تاجر بندقى وتبعته إلى القسطنطينية . وفى أحد الأيام اتهمت بالإساءة إلى شعور المسلمين فى داخل أحد المساجد فاقتادونى إلى القاضى ، فأمر بضربى مائة عصا على باطن قدمى ، وحكم على بالأشغال الشاقة فغللت فى نفس السفينة وعلى نفس المقعد الذى عليه السيد البارون . وكان هناك فى هذه السفينة أربعة شبان من مارسيليا . وخمسة قسس نابوليين ، وراهبان من كورفوا ، قالوا لنا إن أحداثاً كهذه تحدث فى كل يوم . وكنا نتناقش بلا انقطاع ، ونتلقى عشرين ضربة بعصب الثور فى كل يوم عندما اقتادك تسلسل أحداث هذا الكون إلى سفينتنا وافتديتنا

فقال كانديد :

— حسن يا عزيزى بانجلوس ، عندما شنقت وشرحت ، وعانيت من الضرب ما عانيت ، وجذفت فى السفينة ، أكنت تفكر دائماً أنه ليس فى الإمكان أحسن مما كان ؟

— إننى دائما على أول رأى لى ، لأننى رغم كل شىء ، فيلسوف ولا يليق بى أن أتباين فى قولى مادام أن ليبنيز لا يمكن أن يكون مخطئا ، وأن الانسجام السابق استقراره هو أجمل شىء فى العالم كالخلاء والمادة الدقيقة .

الفصل التاسع والعشرون

كيف عثر كانديد على كونيجوند والعجوز

بينما كان كانديد والبـــارون وپانجلوس ومارتان وكاكامبو يقصون مخاطراتهم ، ويفلسفون فى الأحداث العارضة وغير العارضة فى هذا الكون ، ويتناقشون فى المعلولات والعالل ، وفى الشر المعنوى والشر المادى ، وفى الحرية والجبرية ، وفى أنواع العزاء التى يمكن أن يشعر بها المرء حين يكون محكوما عليه بالتجديف فى تركيا ، بينما كانوا كذلك ، وصلوا إلى شاطىء پروبونتيد أمام منزل أمير ترانسيلڤانيا ، فكانت الشخصيتان الأوليان اللتان بدتا أمامهم هما كونيجوند والعجوز ، إذ كانتا تنشران فوطاً على خيوط لتجفيفها .

امتقع البارون لهذا المنظر . أما العاشق الحنون كانديد فإنه حين رأى كونيجوند الجميلة وقد اسمر لونها وتسلخ جفناها ويبس صدرها وتثنت وجنتاها واحمرت ذراعاها وتقشر جلدها ،

تقهقر ثلاث خطوات ، واستولى عليه الفزع ، ثم لم يلبث أن تقدم نحوها بطريقة رقيقة ، فعانقت كانديد وشقيقها ، وعانق الجميع العجوز ثم افتداهما كانديد كلتيهما .

كانت هناك مزرعة صغيرة مجاورة ، فعرضت العجوز على كانديد أن يكتفى بها إلى أن تظفر الجماعة بمصير أفضل ، ولما لم تكن كونيجوند تعرف أنها صارت دميمة لأنه لم ينبئها أحد بذلك فقد ذكرت كانديد بوعوده فى لهجة قاطعة حتى إن كانديد الخير لم يجرؤ على رفض طلبها . وإذن فقد أخطر البارون بأنه سيتزوج شقيقته ولكن هذا الأخير قال :

ـــ إنى لم أحتمل أبداً مثل هذه الوضاعة من جانبها ولا مثل هذه الوقاحة من جانبك . إن هذه الضعة لن تؤخذ على يوما ما إذ أن أولاد شقيقتى فى هذه الحالة لا يستطيعون الدخول فى سجلات النبلاء الألمانية . كلا ! كلا ! لن تتزوج أختى إلا بارونا من بارونات الإمبراطورية .

فألقت كونيجوند بنفسها عند قدميه وبللتهما بدموعها ، ولكنه لم يلن ، وحينئذ قال له كانديد :

ـــ ياسيد المجانين ، إنى أنقذتك من الأشغال الشاقة ، ودفعت فديتك وفدية شقيقتك وكانت هنا تغسل الأوانى ، وهى دميمة

ورغم هذا دفعتنى الطيبة إلى أن أتخذها لى زوجة ، وأنت مازلت تزعم الاعتراض على ذلك ! لو أنى استمعت لغضبى لقتلتك مرة أخرى .

— تستطيع أن تقتلنى من جديد ولكنك لن تتزوج أختى فى حياتى .

الفصل الثلاثون

خاتمـــــة

لم يكن لدى كانديد فى أعماق قلبه أية رغبة فى أن يتزوج كونيجوند ، ولـكن سفاهة البارون المتطرفة ، جعلته يصمم على إتمـام الزواج . وكانت كونيجوند تستحثه فى حرارة إلى حد لا يستطيع معه الرجوع عن قوله . فاستشـار پانجلوس ومارتان وكاكامبو الوفى ، فـكتب پانجلوس مذكرة جيدة أثبت فيها أن البارون ليس له أى حق على شقيقته — وأنهـا تستطيع بمقتضى جميع قوانين الإمبراطورية أن تتزوج كانديد باليد اليسرى — وانتهى مارتان إلى أنه ينبغى إلقاء البارون فى البحر . وصمم كاكامبو على أنه ينبغى رده إلى الربان وإعادته إلى التجذيف ، ثم بعد ذلك يرسل إلى الأب العام فى روما على أول سفينة تبحر ، فألفى الحاضرون هذا الرأى الأخير جيدا جدا . واستحسنته العجوز ، ولـكنهم لم يقولوا من ذلك شيئاً لأخته . وهكذا نفذ الأمر بوساطة شىء من المال ،

وقد اغتبطوا جميعاً بأن نكلوا بيسوعى وعاقبوا كبرياء بارون ألمانى .

كان من الطبيعى بعد هذا العدد العديد من النكبات أن نتخيل كانديد يحيا حياة مرضية بعد زواجه من كونيجوند ، وبحياته مع الفيلسوف بانجلوس ومارتان ، وكاكامبو المتبصر ، والعجوز . وبما كان قد أحضره من الماس الكثير من بلاد الإنكاسيين القدماء .

غير أن اليهود كانوا قد اختلسوا ما لديه ، فلم يبق له شيء سوى مزرعته الصغيرة ، وأن زوجته التى كانت لا تزيدها الأيام إلا دمامة ، صارت شرسة ، غير قابلة للاحتمال ، وأن العجوز كانت مقعدة ، وكان مزاجها أشد من مزاج كونيجوند ، وأن كاكامبو الذى يكد فى الحديقة ، ويذهب إلى القسطنطينية ليبيع الخضر قد أرهقه العمل ، وأصبح لا يكف عن لعن حظه ، وأن بانجلوس كان شديد الأسف على أنه لم يسطع فى إحدى جامعات ألمانيا . أما مارتان فقد كان مقتنعا فى حزم بأن الإنسان يستوى فى السوء أينما كان ، وظل يأخذ الأمور فى صبر .

كان كانديد ومارتان وبانجلوس يتناقشون أحيانا فى الميتافيزيقا والأخلاق . وكانوا يرون غالباً سفنا تمر تحت نوافذهم محملة بالأفندية والباشوات والقضاة الذين يرسلون إلى المنفى فى ليمنوس وميتيلين وإيرزيروم . ويرون قضاة وباشوات وأفندية آخرين يأتون ليأخذوا أمكنة الذين أقصوا عن مراكزهم ؛ ثم أقصوا هم أيضاً بدورهم ، وكانوا يرون رؤوسا مرفوعة على أسنان الرماح لتقديمها إلى الباب العالى ، فكانت كل هذه المناظر تضاعف بحوثهم . وكانوا إذا كفوا عن النقاش أرهقهم الضجر إلى حد أن جرؤت العجوز على أن تقول لهم يوما :

— إنى أريد أن أعرف أى الأمرين أسوأ : أن ينتهك عرض المرأة مائة مرة من قراصنة سود وأن يضرب المرء بالعصا لدى البلغاريين ، وأن يجلد ويشنق فى « المحاكمة الدينية » وأن يشرّح ، وأن يقضى عليه بالتجذيف فى السفن ، وبالاختصار أن يقاسى جميع الآلام التى قاسيناها ، أم أن يبقى هنا لا يعمل شيئاً ؟

فأجاب كانديد قائلا :

— ذلك سؤال هام .

كان هذا الحديث مثارا لأفكار جديدة . فقد استنبط مارتان

على الأخص أن الإنسان ولد ليعيش فى اضطرابات القلق، أو فى سبات الضجر . ولم يكن كانديد يوافق على ذلك، ولكنه لم يقطع فى الموضوع برأى . واعترف بانجلوس بأنه تألم دائماً بفظاعة ، ولكنه لما كان قد أيد مرة واحدة فكرة أن كل شىء يسير على ما يرام ، فإنه لا يزال يؤيدها وإن كان لا يؤمن بها .

وفى أثناء هذه المحادثة ، انتشر نبأ مؤداه أنه قد خنق فى القسطنطينية اثنان من وزراء الديوان والمفتى ، وأجلس عدد من أصدقائهم على الخوازيق . وقد أحدثت هذه الكارثة جلبة عظيمة دامت عدة ساعات . وفى أثناء عودة بانجلوس وكانديد ومارتان إلى المنزل ، التقوا بشيخ طيب كان يستنشق الهواء الرطب أمام بابه تحت عريش من أوراق البرتقال . ولما كان بانجلوس فضولياً بقدر ما هو مجادل ، فقد سأله عن اسم المفتى الذى خنق آنفاً وهنا أجاب الرجل الطيب قائلا :

— إنى لا أدرى عن ذلك شيئاً . ولم أعرف قط اسم أى مفتى ولا أى وزير . وإنى أجهل الواقعة التى تحدثنى عنها جهلا تاما . وإنى أفرض أن الذين يختلطون بالشئون العامة يهلكون

أحياناً على صورة تعسة ، وأنهم يستحقون ذلك . أما أنا فإنى لا أستعلم ألبتة عما يعمل فى القسطنطينية بل أكتفى بأن أرسل فواكه حديقتى التى أزرعها، لبيعها فيها .

وبعد أن قال هذه الكلمات ، أدخل أولئك الأجانب إلى منزله ، وقدمت لهم ابنته وابنه عدة أنواع من المثلجات التى كانوا يصنعونها هم أنفسهم كالقشدة المتبلة بقشر الأترج والبرتقال والليمون والأناناس والفستق، وقهوة موخاسا التى لم يخلطوها بقهوة باتافيا الرديئة ، والجزر . وبعد ذلك عطرت ابنتا ذلك المسلم الخير لحى بانجلوس وكانديد ومارتان .

وإذ ذاك قال كانديد للتركى :

ـ لابد أن يكون لديك أرض خصبة شاسعة .

وأجاب التركى :

ـ ليس عندى سوى عشرين أرپان[1] أزرعها مع ابنى . وإن العمل يبعد عنا ثلاثة آلام كبرى وهى الضجر والرذيلة والحاجة .

وعندما عاد كانديد إلى مزرعته ، تأمل تأملا عميقاً فى حديث التركى ، وقال لبانجلوس ومارتان :

---

(١) الأرپان هو مائة قصبة مصرية أى ١٢٦٠ متراً مربعاً تقريباً . ومعنى هذا أن العشرين أرپانا تعادل ستة أفدنة . (المترجم)

— يبدو لى أن هذا الشيخ الخيّر قد خاق لنفسه حظاً أفضل من حظ الملوك الستة الذين كان لنا شرف العشاء معهم .

فقال پانجلوس :

— إن أنواع العظمة شديدة الخطورة كما قرر جميع الفلاسفة ، فنى الواقع أن إيجلون ملك المؤابيين قد قتل على يد أود ، وأن أبسالون قد علق من شعره واخترقت جسمه ثلاثة سهام ، وأن الملك ناداب بن چيرابعام قد قتله بعسا والملك إيلا قتـــله زامبرى ، وأوكوزياس قتله چيهـــو ، والملكة آتاليـا قتلهـا جويادا ، وأن الملوك جواشيم وجيكونياس وسيديسياس قد صاروا عبيدا . وأنتما تعرفان كيف هلك قارون واستياج ودارا ودينيس طاغية سيراكوسا ، وبيروس وبيرسيوس وهانيبال وجوجورتا وأريوفيست وقيصر وبونبيه ونيرون وأوتون وفيتيليوس ، ودوميسيان وريتشارد الثانى ملك إنجلترا ، وإدوارد الثانى ، وهنرى الرابع ، وريشارد الثالث وشارل الأول ملوك إنجلترا ومارى استوارت ، وملوك فرنسا الثلاثة الذين يحملون اسم هنرى والإمبراطور هنرى الرابع ؟ أنتما تعرفان . . .

ولكن كانديد قاطعه قائلا :

— إننى أعرف أيضا أنه ينبغى أن نزرع حديقتنا .

فقال بانجلوس :

ــ أنت محق لأن الإنسان حين وضع فى جنة عدن ، إنما وضع فيها لكى يعمل « utopératur eum » ، وذلك يثبت أن الإنسان لم يولد للراحة .

وأضاف مارتان إلى ذلك قوله :

ــ لنعمل دون نقاش ، فهذه هى الوسيلة الوحيدة التى تجعل الحياة ممكنة الاحتمال .

انضمت كل هذه الجمعية الصغيرة إلى ذلك المشروع الجدير بالثناء ، وشرع كل واحـــد منهم فى استغلال مواهبه ؛ وهكذا أثمرت تلك الأرض الصغيرة كثيرا .

فى الحق أن كونيجوند كانت جد دميمة ، ولكنها صارت صانعة فطائر ماهرة . وأخذت ماكيت تطرز والعجوز تعنى بالملابس ، بل إن الأخ جيروفيليه نفسه قد أدى نصيبه من الخدمة فكان نجاراً جيداً جدا وأكثر من ذلك أنه صار رجلا شريفا . وكان بانجلوس يقول لكانديد أحيانا :

ــ إن الأحداث مترابطة فى أفضـــل العوالم الممكنه لأنه

بالاختصار لو لم تطرد من قصر جميل بوكزات فى ظهرك من أجل حب الآنسة كونيجوند ، ولو لم تتهم أمام محاكم التفتيش ، ولو لم تعبر أمريكا سيراً على قدميك ، ولو لم تفقد كل كباشك الآتية إليك من بلاد إيلدورادو الجيدة ، لما أكلت هنا الأترج المسكر والفستق .

فأجابه كانديد بقوله :

ــ هذا قول حسن ، ولكن ينبغى أن نزرع حديقتنا .

•

العالم كما هو

نظارة بابوك

تعتبر «نظارة بابوك» بمثابة أحد التصميمات الأولى لكانديد[1] وهى نفيسة بالنسبة إلينا بسبب إيجازها نفسه ، ولأن القارئ يجد فيها ، على صورة مركزة ، كل فلسفة ڤولتير وهى : « إذا لم يكن كل شيء حسناً ، فكل شيء مقبول ، فينبغى قبول العالم على ما هو عليه . »

(١) ألف فولتير هذه القصة فى سنة ١٧٤٦ ، بينما وضع « كانديد » فى سنة ١٧٥٩ ، ولهذا كانت الأولى بمثابة الهيكل أو الخطوط الرئيسية للثانية (المترجم)

١

بين الجن الذين يرأسون إمبراطوريات العالم ، يشغل إيتوريل « Ituriel » أحد أوائل الصفوف ، فهو يرأس إقليم آسيا العليا . ولقد نزل ذات صباح إلى دار بابوك السيتى Babouc على شاطىء نهر جيحون ، وقال :

— يا بابوك ، إن أنواع جنون الفرس وضروب إفراطهم ، قد جلبت سخطنا . وقد اجتمعت جمعية من جن آسيا العليا لمعرفة ما إذا كانت مدينة پرس[1] ، يجب أن تعاقب أو أن تمحى ، فاذهب إلى هذه المدينة واختبر كل شىء فيها ، وستأتى لتقدم إلى حسابا أمينا عن هذا الاختبار ، وسأصمم حسب تقريرك ، إما على إصلاح المدينة بالعقاب وإما على إبادتها .

— لكن يا مولاى أنا لم أذهب قط إلى فارس ، ولا أعرف فيها أحدا .

---

(١) يقصد المؤلف هنا بيير سيبوليس — وهى عاصمة غابرة لبلاد فارس — تصويراً مدينة باريس التى يرسم فيها لوحة لأخلاق أهل عصره وطباعهم وعاداتهم. (المترجم)

— هذا أفضل لكى لا تكون محابيا ، ولقد تلقيت من السماء نعمة التمييز ، وأنا أضيف إلى ذلك موهبة إلهام الآخرين الثقة فيك ، فسر ، وانظر ، واستمع ، ولا تخش شيئا ، فستستقبل فى كل مكان استقبالا حسنا .

ركب بابوك جمله وارتحل مع خدمه وبعد بضعة أيام التقى على مقربة من سهول شنعار بالجيش الفارسى الذى كان ذاهباً لمقاتلة الجيش الهندى . فاتجه أول الأمر إلى جندى ألفاه بعيداً فتحدث إليه وسأله عن موضوع الحرب ، فأجاب الجندى بقوله :

— أقسم بجميع الآلهة أنى لا أعرف شيئا عن ذلك ، فليس هذا شأنى ، وإنما مهنتى هى أن أقتل وأقتل لأكتسب قوتى ، وإن الذى أعمل له ، لا يعنينى إلا قليلا ، بل إنى أستطيع منذ الغد أن أنتقل إلى معسكر الهنود لأنه يقال إنهم يعطون تقريبا من نصف درهم نحاسى فى اليوم لجنودهم أكثر مما عندنا فى هذه الخدمة الفارسية الملعونة . وإذا أردت أن تعرف لماذا هم يتقاتلون ، فتحدث إلى الضابط .

فقدم بابوك هدية صغيرة إلى الجندى ودخل المعسكر . ولم يلبث أن عرف الضابط وسأله عن موضوع الحرب فأجاب قائلا :

— وكيف تريد أن أعرف ؟ وماذا يعنيني من هذا الموضوع الجميل ؟ إنني أسكن على بعد مائتي مرحلة من مدينة برس ، وأسمع أن الحرب أعلنت ، فأهجر على الفور أسرتي ، وأذهب حسب عاداتنا لألقى الثروة أو الموت الموت . ما دمت لا أجد ما أعمله .

— ولكن ألا يعلم رفاقك من أمر ذلك أكثر مما تعلم ؟

— كلا ، ليس هنـــاك من يعلم لماذا نتبادل التذبيح على وجه التقريب سوى مرازبتنا الأساسيين .

وإذ كان بابوك دهشا من هذا ، فقد جعل يتدخل حتى وصل إلى القواد ، وتغلغل إلى ألفتهم وأخيراً قال له واحد منهم :

— إن السبب في هذه الحرب التي تغرق آسيا في الحزن منذ عشرين عاما ، يرجع أصله إلى مشاجرة بين خصي لإحدى نساء ملك الفرس العظيم وأحد موظفي مكتب ملك الهند العظيم وكان الأمر يتعلق بحق يقدر تقريباً بجزء من ثلاثين من الداري[1] . وقد أيد كل من رئيس وزراء الهند ورئيس وزرائنا حقوق سيديهما في كبرياء؛ وإذ ذاك حميت المشاجرة ، ثم أعد كل من الجانبين في حملة حربية جيشا مؤلفا من

---

(١) الداري هو عملة ذهبية فارسية قديمة منسوبة إلى دارا (المترجم) .

مليون من الجنود . وفى كل سنة ، ينبغى أن يجند لهذا الجيش أكثر من أربعمائة ألف رجل ، فيتضاعف القتل والحرائق والدمار والخراب ، ويتألم العالم ، وتستمر المعركة . وفى أغلب الأحايين يعلن رئيس وزرائنا ورئيس وزراء الهند أنهما لا يعملان إلا لسعادة النوع البشرى ، وكل تصريح يصحبه دائما هدم بضع مدن وخراب أحد الأقاليم .

وفى اليوم التالى لهذه الزيارة انتشرت شائعة مؤداها أن السلام سيوقع . وحينئذ بادر القائد الفارسى والقائد الهندى إلى إشعال لهيب المعركة ، فكانت دامية . ورأى بابوك جميع أخطائها وجميع فظائعها وكان شاهداً على مناورات المرازبة الأساسيين الذين يعملون كل ما يستطيعون ليجعلوا رؤساءهم يتقاتلون . ورأى ضباطاً يغتالون بأيدى جنودهم أنفسهم ، ورأى جنوداً يجهزون ذبحاً على رفاقهم المحتضرين لينتزعوا منهم بعض خرق دامية ممزقة ومغطاة بالوحل . ودخل المستشفيات التى ينقل إليها الجرحى الذين يموت أكثرهم بسبب الإهمال الوحشى من جانب أولئك الذين يدفع إليهم ملك الفرس مكافأة غالية لإنقاذهم . فصاح بابوك قائلا :

ــ أهؤلاء رجال أم حيوانات ضارية ؟ آه ! إنى أرى جيداً أن پرس ستمحى .

وإذ كان مشغولا بهذه الفكرة فقد انتقل إلى معسكر الهنود ، فاستقبل فيه كما استقبل فى معسكر الفرس استقبالا حسناً حسبما تنبأ له إيتورييل ، ولكنه رأى فيه جميع ضروب الإفراط نفسها التى أفزعته ، فقال فى نفسه : « إذا كان الملاك إيتورييل يريد القضاء على الفرس ، فينبغى أن يقضى ملاك الهند أيضاً على جميع الهنود » .

وعلى أثر ذلك استعلم فى تفصيل أكثر ، عما كان يجرى فى الجيش ، فعرف من أفعال الكرم وكبر النفس والإنسانية ما أدهشه وسره ، فصاح قائلا :

ــ أيها البشر المستعصين على الفهم ، كيف تستطيعون جمع هذه الكثرة من الوضاعة والعظمة ، وهذه الوفرة من الفضائل والجرائم ؟

ومع ذلك فإن السلام قد أعلن . وإن رؤساء الجيشين ، الذين لم يفز أى واحد منهم بالنصر ، وإن كانوا قد أهرقوا دماء كثير من الرجال أمثالهم فى سبيل مصلحتهم وحدها ، قد ذهبوا إلى ملكيهم ليلحفوا فى طلب مكافآتهم . وقد احتفلوا

بالسلام فى نشرات عامة لم تكن تعلن إلا عن عودة الفضيلة والرخاء على الأرض . وإذ ذاك قال بابوك :

ـــ الحمد لله فدينة برس ستكون مقر البراءة المصفاة . ولن تمحى كما كان أولئك الجن القساة يريدون لها . والآن ، لتسرع بلا إبطاء إلى هذه العاصمة الأسيوية .

٢

وصل إلى تلك المدينة الضخمة عن طريق المدخل القديم الذى كان يتسم بالبربرية الخالصة ويؤذى العيون ببدائيته وسوء ذوقه . كان كل هذا الجزء من المدينة يحمل أثر الزمن الذى بنى فيه ، لإنه ، رغم تشبث الناس بمدح القديم على حساب الحديث ، ينبغى الاعتراف بأن التجارب الأولى فى جميع الأنواع ، تتسم بالفظاظة .

اختلط بابوك بجمهور شعب مؤلف من أقذر وأقبح مايمكن أن يكون من الجنسين . وكان هذا الجمهور يسرع ، وعليه ملامح البله ، إلى مكان مسيّج واسع مظلم . وبسبب الطنين المستمر ، والحركة التى لاحظها ، وقطع العملة التى كان بعض الأشخاص يعطونها غيرهم من أجل الظفر بحق الجلوس ، حسب أنه فى سوق تباع فيها مقاعد من قش . غير أنه لم يلبث أن رأى عدة نساء يركعن متظاهرات بأنهن ينظرن أمامهن فى ثبات ، ولكنهن ينظرن إلى الرجال فى لمحات جانبية ، وحينئذ تبين أنه فى معبد . وسمع أصواتاً مكدرة مبحوحة وحشية متنافرة كانت تجعل السقف

يرن بأصداء مختلطة تشبه أصوات الحمر الوحشية حين تستجيب قطعانها لنداء البوق الخشبي الذى يدعوها ؛ فأصم أذنيه ، كما أوشك أيضاً أن يغمض عينيه ويسد أنفه حين رأى عمالا يدخلون هذا المعبد حاملين الفئوس والجارف ، وقد خلعوا حجراً عريضاً وألقوا يمنة ويسرة بتراب تنبعث منه رائحة عفنة. وبعد ذلك وضعوا ميتاً فى هذه الفتحة ، ثم أعادوا وضع الحجر فوقه ، فصاح بابوك قائلا :

— ماذا ! أتدفن هذه الشعوب موتاها فى نفس المواضع التى تعبد فيها إلهها ! ماذا ! أمعابدهم مرصوفة بجثث ! إننى لم أعد أدهش من تلك الأمراض الوبائية التى تسمم مدينة پرس فى أكثر الأحايين ، فإن النتن المنبعث من الموتى ومن جحافل الأحياء المجتمعين فى مكان واحد قمين بأن يسمم الكرة الأرضية. آه ! يالها من مدينة رديئة مدينة پرس هذه ، يريد الملائكة فيما يظهر ، محوها لكى يستعيضوا عنها بتشييد مدينة أجمل منها ، وليعمروها بسكان أقل قذارة ، وأحسن ترنما ، وقد يكون لدى العناية أسبابها ، فلندعها تفعل.

٣

وفى أثناء ذلك كانت الشمس تقترب من قمة شوطها ، ولم يكن لبابوك بد من أن يذهب إلى الطرف الآخر من المدينة ليتغدى هناك عند سيدة كان زوجها ، وهو ضابط فى الجيش ، قد حمل إليه منها بعض الرسائل . غير أنه قام قبل ذلك ببضع جولات فى پرس ، فرأى معابد أخرى أحسن تشييداً ، وأجمل ازدياناً من الأولى ، معابد مليئة بجمهور مؤدب ، وترن فى جوانبها موسيقى منسجمة . ولاحظ ينابيع عامة تلفت الأنظار بجمالها ، ولو أنها كانت سيئة الوضع ، وميادين يرى فيها أفضل الملوك الذين حكموا بلاد فارس ، وكأنهم يتنفسون فى تماثيلهم البرونزية ، وميادين أخرى كان يسمع فيها الشعب يصيح قائلا : « متى نرى هنا السيد الذى نعزه ؟ » وأعجب بالمعابر البديعة المقامة فوق النهر ، والأرصفة الفخمة المغرية ، والقصور المشيدة على يمين النهر ويساره ، وبمنزل ضخم يحتوى على عدة آلاف من جرحى الجنود القدماء المنتصرين يشكرون فى كل يوم إله الجيوش . وأخيراً دخل منزل السيدة التى كانت تنتظره للغداء فى رفقة

جماعة من ذوى اللباقة . وكان المنزل نظيفاً ومزدانا ، والمائدة لذيذة ، والسيدة شابة جميلة خفيفة الروح والرفقة جديرة بها . وكان بابوك يقول لنفسه فى كل لحظة : « لا جرم أن الملاك إيتوربيل يمزح حين يتحدث عن محو مدينة ساحرة إلى هذا الحد » .

٤

ومع ذلك فقد لمح أن السيدة التى بدأت بسؤاله فى حنان عن أنباء زوجها ، جعلت تتحدث أيضاً ، بحنان أكثر ، مع كاهن شاب عند نهاية المائدة . ورأى قاضيا فى حضرة زوجته يغازل فى حرارة سيدة أرملة . وكانت زوجة القاضى أولى من غادرن المائدة حيث ذهبت إلى إحدى الحجر المجاورة لكى تتحدث مع مرشدها الدينى الذى وصل متأخراً ، وكان الحاضرون قد انتظروه للغداء . وفى الحق أن هذا المرشد ، وهو رجل فصيح ، قد تحدث إليها فى هذه الحجرة بكثير من الحمية والرقة إلى حد أن السيدة عادت بعينين مبللتين ووجنتين ملتهبتين وخطى سيرها غير ثابتة ، وكانت كلماتها مضطربة .

وحينئذ بدأ بابوك يخشى أن يكون الملاك إيتورييل محقا .

استنبط بابوك من ذلك أن مجتمعاً كهذا لا يمكن أن يدوم ، وأن لا بد أن تكون الغيرة والتنافر والانتقام ، تعم جميع

المنازل وتشقيها ، وأن الدموع والدماء تسيل فى كل يوم ، وأن إيتوربيل أخيراً لا يعدو الصواب بمحوه دفعة واحدة ، مدينة ركنت إلى الفوضى المستمرة .

٥

كان بابوك غارقا فى هذه الفكر المشئومة حين تقدم إلى الباب رجل واجم يرتدى معطفا أسود ، وطلب فى تواضع أن يتحدث إلى القاضى الشاب الذى لم ينهض من مكانه ، ولم يلتفت إلى القادم ، بل ناوله فى ترفع وعدم مبالاة ، بضع أوراق ، ثم صرفه . فسأل بابوك من يكون هذا الرجل ، فقالت له سيدة المنزل فى صوت خافت :

ــ إنه أحد أفذاذ المحامين فى المدينة إذ يدرس القانون منذ خمسين سنة ، أما هذا السيد الذى لا يبلغ من العمر سوى خمس وعشرين سنة ، والذى يحتل مركزاً رفيعا فى القضاء منذ يومين ، فقد وكل إليه تلخيص قضية عليه أن يقضى فيها غداً ولكنه لم يفحصها بعد .

ــ إن هذا الشاب الطائش لم يعد الحكمة حين طلب النصيحة من شيخ ، ولكن لماذا لا يكون هذا الشيخ هو القاضى ؟

فقالت السيدة :

ــ إنك تسخر ! فأولئك الذين شاخوا فى الوظائف التى

تتطلب العمل ، والتى لا بد أن تكون وظائف منخفضة ، لا يصلون ألبتة إلى المناصب الرفيعة . أما هذا الشاب فهو فى منصب كبير لأن والده ثرى ، وأن حق القضاء هنا يشترى كأنه مزرعة .

فصاح بابوك قائلا .

— أوه أيتها الأخلاق ! أوه أيتها المدينة التعسة ! هذه نهاية الفوضى ، وهؤلاء الذين اشتروا حق القضاء يبيعون بلا ريب أحكامهم ، حقا إنى لا أرى هنا إلا هوّات مليئة بالظلم .

وبينما هو يعبر عن آلامه ودهشته على هذا النحو قال له محارب شاب كان قد عاد فى ذلك اليوم ذاته من الجيش :

— لماذا لا تريد أن تشترى وظائف القضاء ؟ لقد اشتريت أنا حق مجابهة الموت على رأس الألفين من الرجال الذين أرأسهم . ولقد كلفنى ذلك الشراء فى هذا العام أربعين ألف داريا ذهبا فى مقابل أن أرقد على الأرض ثلاثين ليلة متتالية فى ثياب حمراء ، وأن أتلقى سهمين لا أزال أشعر بآثارهما حتى الآن . وإذا كنت أخرب بيتى بيدى على هذا النحو لأؤدى خدمة إلى إمبراطور فارس الذى لم أره قط ، فإن السيد القاضى الأعلى يستطيع أن يدفع شيئا لكى يظفر بمتعة الاستماع إلى المتخاصمين والقضاء بينهم .

وإذ ذاك لم يستطع بابوك الساخط أن يمنع نفسه من أن يدين، فى قلبه ، بلداً توضع فيه مناصب السلام والحرب فى المزاد . واستنتج على الفور أن الناس فيه لابد يجهلون الحرب والقوانين تمام الجهل ، وأنه حتى لو لم يبد إيتوريبيل هذه الشعوب لهلكت بسبب إدارتها البغيضة .

وازداد رأيه سوءاً أيضاً عندما دخل رجل بدين لحيا كل الجماعة ثم اقترب من الضابط الشاب وقال له :

ـ إننى لا أستطيع أن أعيرك إلا خمسين ألف دارى ذهب لأن مكوس جمارك الإمبراطورية لم تدر على إلا ثلاثمائة ألف دارى فى هذا العام .

استعلم بابوك عمن عسى أن يكون هذا الرجل الذى يشكو من أنه يربح قليلا إلى هذا الحد . فعلم أنه يوجد فى مدينة پرس أربعون ملكا من أبناء الشعب التزموا بجباية خراج الدولة الفارسية ويلتزمون بدفع شىء معين إلى الإمبراطور .

٦

اتجه بعد الغداء إلى معبد من أبدع معابد المدينة ، وهناك جلس فى وسط جماعة من الرجال والنساء كانوا قد جاءوا إلى ذلك المكان على أن يؤدوا بعض مايحبونه للشاه . وهنا ظهر كاهن فوق منصة عالية وتحدث وقتا طويلا عن الرذيلة والفضيلة . وقد قسم هذا الكاهن إلى عدة أجزاء مالم يكن فى حاجة إلى أن يقسم ، وأثبت بطريقة منهجية كل ما كان واضحا ، وعلم الناس كل ما كانوا يعرفونه ، وتحمس ثم خرج يتصبب عرقا ويلهث . وحينئذ استيقظت الجماعة من سنتها ، وحسبت أنها استمعت إلى موعظة ، وقال بابوك :

ـــ هـذا الرجل قد فعل أقصى ما يستطيعه لكى يضجر مائتين أو ثلاثمائة من مواطنيه ، ولكن نيته كانت حسنة ، وليس فى هذا مايستوجب محو مدينة برس .

وعند الخروج من هذا الاجتماع اقتيد بابوك إلى احتفال عام كان يقام فى كل يوم من أيام السنة ، وكان ذلك فى مكان يشبه أن يكون معبداً فى نهايته يرى الرائى قصرا وكانت أجمل مواطنات برس ، وأعظم الشخصيات الأساسية مقاما ، يصطفون تبعا لنظام خاص ويؤلفون

منظرا جميلا إلى حد أن حسب بابوك أن ذلك هو كل الاحتفال . ولم يلبث أن ظهر فى ذلك القصر شخصيتان أو ثلاث يبدو أنها شخصيات ملوك وملكات . وكانت لهجتهم جد مختلفة عن لهجة الشعب . فكانت متزنة ومنسجمة وسامية . ولم يكن أحد ينام فى هذا الفناء ، بل كان الكل يستمعون فى صمت عميق ، لايقطعه إلا التأثر والإعجاب العامان .

كان واجب الملوك ، وحب الفضيلة ، وأخطاء الأهواء ، موضوعا لعظات مؤثرة رقت عبارتها إلى حد أن ذرف بابوك العبرات . ولم يرتب فى أن هؤلاء الأبطال والبطلات أو أن أولئك الملوك والملكات الذين سمعهم ، هم وعاظ الإمبراطورية ، بل انتوى أن يحض إيتوريل على أن يأتى لسماعهم ، وكان على يقين من أن منظرا كهذا سيصلح ما بينه وبين المدينة إلى الأبد .

وعلى أثر انتهاء الحفلة أراد أن يرى الملكة الأولى التى نشرت فى هذا القصر الجميل ، أخلاقا جد نبيلة وجد نقية ، فطلب أن يقدم إلى جلالتها ، واقتيد عن طريق سلم صغير ، إلى جناح سيىء التأثيث حيث وجد امرأة رديئة الملبس فقالت له فى نبل مؤثر :

— إن هذه المهنة لا تدر على ما أقتات به ، وقد أحلنى

أحد الأمراء الذين رأيتهم طفلا ، وسأضع عما قريب ولكن المال يعوزنى ، وبلا مال لا يتم الوضع . وهنا منحها بابوك مائة دارى ذهبا وهو يقول :

— لو لم يكن سوى هذا الشر فى المدينة ، لكان إيتوربيل مخطئاً فى أن يغضب إلى هذه الدرجة .

وغادر بابوك المسرح ليقضى المساء عند تجار التوافه الكمالية . وقد اقتاده إلى هناك رجل ذكى كان قد عرفه ، فاشترى ماراقه وباعه إياه ذلك التاجر فى أدب ، بثمن يعلو كثيراً عن قيمته . وحين عاد إلى منزله أبان له صديقه كم أنه خدع . وحينئذ كتب بابوك فى مذكراته اسم التاجر ليلفت إليه نظر إيتوربيل فى يوم عقاب المدينة . وبينما كان يكتب سمع طرقا على بابه . وكان الطارق هو نفس التاجر قد أتى ليحمل إليه كيسه الذى تركه سهوا على منضدته . فصاح بابوك قائلا :

— كيف يمكن أن تكون أميناً وكريماً إلى هذا الحد وأنت لم تخجل من أن تبيع لى ترهات بأربعة أضعاف قيمتها ؟

فأجاب التاجر :

— لا يوجد تاجر معروف فى المدينة ولو قليلا إلا ويأتى ليرد إليك كيسك ، ولكنهم خدعوك حين قالوا لك إنى بعت لك

ما أخذته من عندى بأربعة أضعاف قيمته . فالواقع أنى بعتك اياه بأكثر من ثمنه عشر مرات . وهذا حق ، إنك لو أردت بيعه بعد شهر لما ظفرت حتى بعشر ثمنه . ولكن لا شىء أعدل من ذلك لأن هواية الناس العابرة هى التى تحدد أثمان هذه الأشياء التافهة ، وهذا الهوى هو الذى يحقق قوت العمال المائة الذين أستخدمهم ، وهو الذى يمنحنى منزلا جميلا ، ومركبة مريحة ، وجيادا ، وهو الذى ينعش الصناعة ، والذى يغذى الذوق وينشر الرواج . وإنى أبيع للبلاد المجاورة نفس التوافه بثمن أغلى مما أخذت منك ، وإنى بهذا أنفع الإمبراطورية .

بعد أن فكر بابوك قليلا ، محا اسم هذا التاجر من مذكراته وهو يقول فى نفسه : « إنى أمحوه لأن فنون الترف لا تكون كثيرة العدد فى أية إمبراطورية إلا إذا كانت الفنون الضرورية مستوفاة ، وكان المواطنون كثيرين وأثرياء ، ويخيل إلى أن إيتوربيل قاس قليلا . »

٧

ولما كان بابوك حائراً مما يجب أن يقرره بشأن مدينة برس فقد صمم على أن يرى الكهنة والمثقفين ، لأن الأولين يدرسون الدين والآخرين يدرسون الحكمة ، وظن أن أولئك وهؤلاء سيظفرون بالعفو عن بقية الشعب . ومنذ صباح اليوم التالى اتجه إلى أحد مجامع الكهنة ، فاعترف له الرئيس أن لديه دخلا مقداره مائة ألف ريال ، لأنه عاهد ربه على أن يكون فقيرا ، وأنه يملك سلطة واسعة نوعا بفضل العهد الذى قطعه على نفسه بالتزام التواضع . وبعد ذلك وكل أمر بابوك إلى أخ صغير ليطلعه على الدار .

وبينما كان هذا الأخ يريه ترف هذه الدار ، دار الندم والتوبة ، انتشرت شائعة مؤداها أن بابوك قد أتى لإصلاح جميع الدور الدينية . وعلى أثر ذلك تلقى مذكرة من كل واحدة منها . وكانت كل هذه المذكرات تقول فى جوهرها : « احتفظ بنا وحدنا واهدم كل الدور الأخرى » . فلو استمع إلى ثناء هذه الجمعيات على أنفسها لكانت كلها ضرورية ، ولو استمع إلى اتهاماتها المتبادلة

لكانت جميعها تستحق الإبادة . وقد أحزنه أنه لم يجد واحدة منها تقبل أن تتخلى عن ملك الكون لكى تستطيع إنشاءه .

وإذ ذاك تقدم إليه رجل قصير القامة لم يكن إلا نصف كاهن وقال :

— إنى أرى جيدا أن أمر الله على وشك التحقق ، لأن زارادشت قد عاد إلى الأرض . ولأن الفتيات الصغيرات يصدرن النبوءات وهن يخضعن لتلقى ضربات الملافظ على بطونهن والسياط على ظهورهن : فمن الواضح أن العالم سينتهى . أفلا تستطيع قبل ذلك العصر الجميل ، أن تحمينا من اللاما الأكبر ؟

— أى خلط هذا ! أمن اللاما الأكبر ؟ أمن ذلك الحبر الملك الذى يقيم فى التبت ؟

فقال نصف الكاهن القصير وعليه ملامح الإصرار :

— نعم منه هو ذاته .

— أفتحاربونه إذن ؟ أو عندكم إذن جيش ؟

— كلا ، ولكننا كتبنا ضده ثلاثة أو أربعة آلاف من الكتب الضخمة التى لا يقرؤها أحد ؛ ومقدار هذا العدد من الرسائل الصغيرة التى نحمل النساء على قراءتها ، وهو لا يكاد يسمع بنا .

غاية ما فى الأمر أنه أمر بالقضاء علينا على نحو ما أمر السيد بأن تنظف أشجار حديقته من الديدان .

ارتعد بابوك من هؤلاء الرجال الذين يحترفون الحكمة ، ومن دسائس أولئك الذين تخلوا عن العالم ، ومن الطمع والشره المتعجرف لدى أولئك الذين يعدون التواضع والنزاهة ، وانتهى إلى أن إيتوريل لديه أسباب جيدة لإبادة كل هذا النوع الزرى من الناس .

٨

وعندما عاد إلى منزله أرسل فى طلب كتب جديدة ليلطف حزنه ، ودعا بعض المثقفين إلى الغداء معه ليظفر بشىء من السرور ، فجاء منهم ضعف العدد الذى طلبه كالزنابير التى يجتذبها العسل ، فهؤلاء الطفيليون كانوا يسارعون إلى الأكل والكلام ، وكانوا يثنون على نوعين من الناس : الموتى وذواتهم ، ولا يثنون ألبتة على معاصريهم فيما عدا رب المنزل . وإذا قال أحد منهم كلمة طيبة خفض الآخرون عيونهم ، وعضوا على شفاههم من الألم على أن لم يقولوها هم . كانوا أقل نفاقاً من الكهنة لأنهم أقل منهم طموحا . فكل واحد منهم يلحف فى طلب وظيفة خادم وشهرة رجل عظيم ؛ وكانوا يتبادلون علانية فيما بينهم ، أشياء مسيئة يحسبونها نكات . وكانوا قد عرفوا طرفا من مهمة بابوك ، ولهذا رجاه واحد منهم فى صوت جد منخفض ، أن يبيد مؤلفاً لم يكن قد أثنى عليه ثناء كافياً قبل ذلك بخمسة أعوام ، وطلب آخر القضاء على مواطن لم يضحك قط من مهازله ، وطلب ثالث إبادة المجمع اللغوى ، لأنه لم

يستطع الوصول إلى أن يقبل فيه . وعندما انتهت المأدبة انصرف كل منهم منفردا لأنه لم يكن يوجد فى كل الجماعة رجلان يستطيع كل منهما أن يحتمل الآخر بل أن يتحدث إليه فى أى مكان آخر غير منازل الأثرياء الذين يدعونهم إلى موائدهم .

انتهى بابوك من هذا الى الحكم بأنه لن يكون هناك شر كبير فى أن يهلك هؤلاء الأدنياء فى حركة الإبادة العامة .

٩

وعندما تخلص منهم شرع فى مطالعة بضعة كتب جديدة فعرف فيها روح مدعويه ورأى، بوجه خاص وفى سخط شديد ، تلك الصحف التى تعبر عن ألسنة السوء وتلك السجلات المشتملة على سوء الذوق الذى أملاه الحسد والوضاعة والجوع ، وتلك الأهاجى الخاتلة التى تحابى العقاب وتمزق الحمامة ، وتلك الروايات المجردة من الخيال ، والتى تعج بصور نساء لايعرفهن المؤلف . فألقى فى النار بكل هذه المؤلفات البغيضة ، وخرج ليذهب إلى النزهة فى المساء ، فقدمه بعض معارفه إلى أديب مسن لم يكن قد جاء ليزيد ضخامة عدد أولئك الطفيليين ، وكان هذا الأديب يفر دائماً من الجمهور ، ويعرف الناس معرفة جيدة ، ويعاملهم ويتصل بهم فى اعتدال ، فتحدث إليه بابوك فى ألم عما قرأ وما رأى . وإذ ذاك أجابه الحكيم الأديب بقوله :

— حقاً قرأت أشياء جد حقيرة ، غير أنه من المعتاد فى جميع الأزمنة وجميع البلاد وجميع الأنواع أن يكون الخبيث كثير العدد.

والطيب نادراً . لقد استقبلت فى منزلك رواسب الإدعاء ، لأنه يلاحظ فى جميع المهن أن أشد الأشياء إمعاناً فى عدم الجدارة بالظهور ، هو الذى يتقدم دائما فى أكثر ما يكون صفاقة ، وأن الحكماء الحقيقيين يعيشون فيما بينهم منعزلين هادئين . ولا جرم أنه لا يزال يوجد بيننا رجال وكتب خليقة بالتفاتكم .

وبينما هما يتحدثان على هذا النحو انضم إليهما أديب آخر . ولقد كانت أحاديث هذين الأديبين لذيذة مفيدة متسامية عن الأوهام ، متسقة مع الفضيلة إلى حد أن اعترف بابوك بأنه لم يسمع قط مثل هذا ، وكان يقول بصوت خافت : « هاهم أولاء الرجال الذين لا يجرؤ الملك إيتوريل على أن يمسهم بسوء ، وإلا كان عديم الشفقة » .

ومع أن بابوك قد تحسنت علاقته بالأدباء ، فقد كان لايزال ساخطا على بقية الشعب . وهنا قال له الرجل المتعقل الذى كان يتحدث إليه آنفاً :

— إنك أجنبي ، ومن ثم فإنك تتلقى ضروب الإفراط مجتمعة ، وإن الخير الخفى والذى ينتج أحيانا من ذلك الإفراط نفسه يفلت منك .

وحينئذ علم أنه يوجد بين الأدباء بضعة أفراد حساد ، وأنه

يوجد بين الكهنة أنفسهم فضلاء. وأخيراً أدرك أن هذه الجماعات الكبرى التى يبدو أنها باحتكاكها تدنو من حتفها ، أنظمة سلمية فى الواقع . وأن كل جمعية من الكهنة زمام لمنافسيها ، وأنها إذا اختلفت فى بعض الآراء فإنها جميعها تدعو إلى نفس الأخلاق ، وتعلم الشعب وتحيا خاضعة للقوانين . وهى فى ذلك شبيهة بجماعة المربين الذين يسهرون على أبناء الدار بينما يسهر رب الدار عليهم أنفسهم .

عاشر بابوك عدداً من أعضاء تلك الجماعات ، فرأى بينهم نفوساً سماوية ، بل علم أنه يوجد بين أولئك المجانين الذين يدعون أنهم يحاربون اللاما الأكبر ، رجال عظماء . وفى النهاية ظن أنه من الممكن أن تكون أخلاق مدينة برس مثل المبانى التى بدا له بعضها جديراً بالإشفاق ، وملأه البعض الآخر بالإعجاب .

١٠

وهنا قال لأديبه :

ـــ إنى أدرك جيداً أن أولئك الكهنة الذين حسبت أنهم جد خطيرين يعتبرون فى الواقع جد نافعين ، لا سيما حين تمنعهم حكومة رشيدة من أن يشعروا بأنهم ضروريون بصورة مفرطة . ولكنك تعترف لى على الأقل بأن قضاتكم الشبان الذين يشترون مناصب القضاء بمجرد تعلمهم ركوب الخيل ، لابد أنهم ينشرون فى المحاكم كل ما تشتمل عليه القحة من أشد الأشياء مدعاة للضحك ، وكل ما يحتويه الظلم من أسوأ أنواع الفساد . وكان الأفضل بلا ريب إعطاء هذه الوظائف مجاناً إلى أولئك الفقهاء المسنين الذين أمضوا كل حياتهم فى وزن ما للأشياء وما عليها .

ـــ لقد رأيت جيشنا قبل أن تدخل مدينة بيرس ، وأنت تعرف أن ضباطنا الشبان يقاتلون جيداً ، ولو أنهم اشتروا وظائفهم . ومن الممكن أن ترى أن قضاتنا الشبان لا يسيئون الحكم ، ولو أنهم دفعوا ثمن القضاء .

اقتاد الأديب بابوك فى اليوم التالى إلى المحكمة الكبرى التى كانت على وشك إصدار حكم هام، وكانت القضية معروفة للجميع، وكان كل المحامين المسنين الذين يتناقشون فيها لا يستقرون على رأى، وقد أوردوا مائة قانون لم يكن أى واحد منها قابلا للتطبيق على جوهر المسألة، وكانوا ينظرون إلى القضية من مائة جانب لم يكن أى جانب منها تام الوضوح، ولقد كان القضاة فى تصميمهم، أسرع من المحامين فى شكهم، وكان حكمهم إجماعيا تقريبا. ونجحوا فى حكمهم لأنهم اتبعوا أنوار العقل، وشط الآخرون فى آرائهم لأنهم لم يستشيروا سوى كتبهم.

استنبط بابوك أنه فى الغالب توجد فى الإفراط أمور جيدة جدا، وفى اليوم ذاته رأى أن ثروات رجال المال التى طالما أثارته، كانت تستطيع أن تنتج نتيجة باهرة. لأنه عندما احتاج إلى المال، وجد فى ساعة واحدة عن طريقهم، مالم يكن ليظفر به فى ستة أشهر بالطرق العادية. ورأى أن هذه السحب الضخمة المنتفخة بطل الأرض، ترد إليها فى صورة مطر، ماكانت قد تلقته منها. وفوق ذلك فإن أبناء أولئك الرجال الجدد كانوا فى الغالب أحسن تربية من أبناء أعرق الأسر، وكانوا أحيانا يفوقونهم كثيرا لأنه لا شىء يمنع المرء من أن يكون قاضيا دقيقا، ومحاربا شجاعا، ورجل حكومة ماهر بحجة أن والده كان يعرف من أين تؤكل الكتف.

١١

أصبح بابوك — بطريقة لاشعورية — يعفو عن شراهة رجل المال الذى ليس فى الواقع أكثر شرها من غيره ، وفى الوقت نفسه يعتبر ضروريا . وصار يعذر جنون من يعمل على خراب بيته فى سبيل أن يقضى بين الناس وأن يقاتل ، ما دام أن ذلك الجنون هو الذى يثمر قضاة كبارا وأبطالا . وغدا يصفح عن تحاسد الأدباء ما دام يوجد بينهم رجال ينيرون العالم ؛ وراح يصطلح مع الكهنة الطماعين الدساسين ما دام لديهم من الفضائل الكبرى أكثر مما لديهم من رذائل صغيرة . ولكن بقى لديه ما يشكو منه ، وعلى الأخص مغازلات السيدات . وكانت الفواجع التى لابد أن تنتج عنها تملؤه بالقلق والفزع .

ولما كان يريد أن يتغلغل إلى كل الحالات البشرية ، فقد طلب الذهاب إلى أحد الوزراء ولكنه كان دائما يضطرب فى طريقه خوفا من أن تقتل فى حضوره إحدى النساء بيد زوجها . وبعد وصوله إلى مقر الحكومة ، بقى ساعتين فى حجرة الانتظار دون

أن يعلن عن وجوده ، وساعتين أيضا بعد أن أعلن عنه . وكان يحيك فى نفسه فى أثناء هذا الوقت ، أن ينبه الملك إيتوريبل إلى الوزير وحجابه الوقحاء .

كانت حجرة الانتظار مليئة بسيدات من كل الطبقات ، وكهنة من كل الألوان ، وقضاة ، وتجار وضباط ، ومتحذلقين . وكان الجميع يشكون من الوزير ، فالبخيل والمرابى يقولان : « إن هذا الرجل بلا ريب ينهب الأقاليم » ، ورجل الأهواء يأخذ عليه أنه غريب الأطوار ، ورجل الشهوات يقول : « إنه لا يفكر إلا فى لذائذه » . والدساس يعلل نفسه بأنه سيراه يهوى قريبا تحت سلطان التآمر . أما النساء فقد كن يأملن أن يجدن وزيرا أكثر شبابا .

كان بابوك يستمع إلى أحاديثهم ، ولم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من أن يقول : « هذا رجل سعيد لأن كل أعدائه فى حجرة انتظاره وهو يسحق بسلطانه من يحسدونه ، ويرى عند قدميه من يبغضونه » .

وأخيراً دخل الوزير فرأى فيه بابوك شيخاً قصيرا قوسه عبء السنين والأعمال ، ولكنه لايزال نشيطاً ومليئاً بحضور البديهة ، فراقه بابوك . وقد بدأ هو رجلا جديراً بالاعتبار فى نظر هذا الأخير ، وهنا صارت محادثتهما جد شائقة ، فاعترف الوزير بأنه

رجل وفير التعاسة ، لأنه ينظر إليه على أنه ثرى وهو فقير ، ويظن أنه ذو سلطان قوى ، مع أن الجميع يخالفونه دائما ، وأن كل من أحسن إليهم كانوا من الجحودين ، وأنه — فى عمله المستمر الذى دام أربعين سنة — لم يكن يظفر إلا بلحظة عزاء واحدة .

فتأثر بابوك من ذلك ، وفكر فى أنه إذا كان هذا الرجل قد أخطأ ، وإذا كان الملك إيتوربيل يريد عقابه ، فإنه لا يحتاج إلى أن يبيده ، بل يكفيه فقط أن يبقى له وظيفته .

١٢

بينما كان بابوك يتحدث إلى الوزير ، إذا السيدة الجميلة التى تغدى عندها تدخل بغتة . وكان الناظر إليها يرى فى عينيها وعلى جبهتها أعراض الألم والغضب . فاندفعت تؤنب رجل الدولة وذرفت العبرات ، وشكت فى مرارة من أن المسئولين قد أبوا على زوجها منصباً كان مولده يسمح له بأن يتوق إليه ، وكانت خدماته وإصاباته فى الحروب ترشحه له عن جدارة . ولقد عبرت عن نفسها بكثير من القوة ووضعت كثيراً من الرشاقة فى شكواها ، وهدمت الاعتراضات بكثير من المهارة ، وأبانت قيمة الأسباب بكثير من الفصاحة ، وقد بلغ كل ذلك من الوفرة إلى حد أنها لم تخرج من الحجرة إلا بعد أن حققت لزوجها مايصبو إليه ، وعلى أثر ذلك صافحها بابوك وقال لها :

— أمن الممكن يا سيدتى أن تتعبي نفسك كل هذا التعب فى سبيل رجل لا تحبينه وتخشين من جانبه كل شيء ؟

فصاحت قائلة :

— رجل لا أحبه ؟ اعلم أن زوجى هو خير صديق لى فى العالم ، وأنى مستعدة لأن أضحى من أجله بكل شيء ، مادام يترك لى الحبل على الغارب !

ولقد تبين بابوك — مع أنه سيتّى ، ومرسل من قبل جنى — أنه إذا بقى أكثر من ذلك فى برس فإنه سينسى إيتورييل من أجل تيون . وأخذ يشعر بحب تلك المدينة التى كان شعبها مؤدبا ووديعا ومحسناً ، ولو أنه طائش ومغتاب وممتلىء بالغرور . وأصبح يخشى أن يقضى بالإدانة على برس ، بل صار يخشى عاقبة التقرير الذى سيقدمه ، وهاك كيف اتخذ السبيل لتأدية هذا الحساب .

طلب من أفضل مثال المدينة أن يصنع له تمثالا صغيرا مكونا من جميع المعادن والأتربة ، وأكثر الأحجار نفاسة وأشدها وضاعة ثم حمله إلى إيتورييل وقال له :

— هل ستحطم هذا التمثال الجميل لأن كل ما فيه ليس ذهباً ولا ماسا ؟

ففهم إيتوربيل هذا التلميح ، وصمم حتى على ألا يفكر فى إصلاح برس ، وأن يدع « العالم يسير كما هو سائر » لأنه كما يقول : « إذا لم يكن كل شىء حسنا فكل شىء محتمل » .

وإذن فقد تركت برس تحيا ، ولم يكن لبابوك أن يشكو من ذلك كما غضب يونس من أن نينوى لم تمح . ولكن عندما يقضى المرء فى بطن الحوت ثلاثة أيام ، لا يكون ذا مزاج معتدل كما لو كان فى الأوبرا وفى مسرح الكوميدى أو كما لو تعشى فى رفقة حسنة .

ميكروميجاس Micromégas

قصـــة فلسفية

قصة ميكروميجاس تدين بكثير لسويفت ، ولرحلات ، جليفر ، ولكن دعابة الكاتب الفرنسى أبرز شخصية ، وأقل جوداً من دعابة الإنجليزى ، فالواقع أن المرتحل إلى نجمه الشعرى ، ليس سوى ڤولتير نفسه أو الروح التى تهيمن من المحل الأرفع على حماقات الناس وجنونهم .

الفصل الأول

رحلة أحد سكان نجمة الشعرى فى كوكب زحل

فى أحد هذه الكواكب التى تدور حول تلك النجمة المسماة بالشعرى ، كان يوجد شاب حاضر البديهة تشرفت بمعرفته فى رحلته الأخيرة التى قام بها على وكر النمل الذى هو كوكبنا ويدعى ميكروميجاس وهو اسم يتفق اتفاقا قويا مع كل العظماء . كان ارتفاعه ثمانى مراحل ، وأقصد من الثمانى مراحل أربعة وعشرين ألف خطوة هندسية كل خطوة منها خمس أقدام .

ولا ريب أننا سنرى بعض المهندسين يهبون - وهم قوم نافعون دائما لعامة الشعب - فيتناولون الأقلام . وحينئذ سيجدون أنه من حيث إن السيد ميكروميجاس ، وهو من سكان بلاد الشعرى ، يبلغ طوله من رأسه إلى قدميه ، أربعة وعشرين ألف خطوة وهى تؤلف مائة وعشرين ألف قدم فى حين أننا نحن سكان الأرض لا نكاد نبلغ إلا خمس أقدام ، وأن دائرة كرتنا تبلغ تسعة آلاف مرحلة ، أقول سيجدون أنه ينبغى حتما أن تكون دائرة الكرة التى أنتجت ميكروميجاس أكبر من أرضنا الصغيرة واحدا وعشرين

مليونا وستمائة ألف مرة بالضبط . لا شيء أبسط ولا أكثر عادية في الطبيعة من هذا ، ولا جرم أن دول بعض أمراء ألمانيا أو إيطاليا التي يمكن الدوران حولها في نصف ساعة إذا قيست بإمبراطوريات تركيا أو الموسكوف أو الصين ، لا تكون سوى جد ضئيلة من تلك الفروق الهائلة التي وضعتها الطبيعة في جميع الكائنات ».

ولما كانت قامة سعادته بالارتفاع الذي ذكرته ، فإن جميع مثالينا وجميع رسامينا ، سيتفقون بلا عناء على أن دائرة خصره يمكن أن تبلغ خمسين ألف قدم ، وتلك نسبة جد جميلة .

أما عقله ، فمن أوسع العقول التي عرفناها ثقافة ، فهو يعرف كثيرا من الأشياء ، وقد اخترع بضعة منها . لم يكن قد بلغ بعد من العمر مائتين وخمسين سنة ، وكان لايزال يدرس حسب العرف في مدرسة اليسوعيين في كوكبه حين هدته قوة عقله إلى التنبؤ بأكثر من خمسين مبدأ من مبادئ إقليدس ، أي أنه زاد ثمانية عشر على بليز باسكال الذي تنبأ باثنين وثلاثين منها وهو يلهو ، فيما تقول أخته ، ثم صار منذ ذلك الحين مهندسا عاديا وميتافيزيقيا جد رديء . وفي نحو الخمسين بعد الأربعمائة من سنه ، عندما تجاوز الطفولة ، شرح كثيراً من تلك الحيوانات الصغيرة التي لايبلغ قطر

الواحد منها مائة قدم ، والتى تدق عن المنظار المعظم العادى ، وقد ألف فى ذلك كتابا عجيباً ولـكنه خلق له بعض المشكلات ، فمفتى بلاده قد وجد فى هذا الكتاب أقوالا مشتبهة نابية متهورة متزندقة ، فتعقبه فى حرارة . كان الأمر فيه يتعلق بمعرفة ما إذا كانت الصورة الذاتية لبراغيث الشعرى من نفس طبيعة الحيوانات الحلزونية ، وقد دافع ميكروميجاس عن نفسه فى شىء من الدعابة ، فجعل النساء فى جانبه واستمرت القضية مائتين وعشرين سنة وأخيراً قضى المفتى بإدانة الكتاب بوساطة فقهاء لم يقرءوه وتلقى المؤلف الأمر بأن يكف عن الظهور فى القصر طوال ثمانمائة سنة .

لم يكتئب ميكروميجاس إلا قليلا من إقصائه عن قصر لم يكن مملوءاً إلا بالصغائر وضروب النكد . وقد أنشأ أغنية جد مسلية ضد المفتى لم يكد هذا الأخير أن يعبأ بها ، ثم شرع يرتحل من كوكب إلى كوكب ليثقف قلبه وعقله كما يقال : ومما لا ريب فيه أن الذين يدهشون من وسائل السفر فى العوالم العليا لأننا نحن — فوق كومتنا الطينية الصغيرة — لاندرك شيئاً فيما وراء عاداتنا . ولما كان رحالنا يعرف معرفة تستوجب العجب ، قوانين الجاذبية ، وكل القوى الجاذبة والدافعة ، فإنه

كان يستخدمها فى مواضعها إلى حد أنه كان يذهب هو وأتباعه من كرة إلى كرة كما يطير الطائر من غصن إلى غصن وذلك تارة بمعونة أحد أشعة الشمس ، وتارة أخرى بوساطة صلاحية إحدى المذنبات . ولقد طاف بالمجرة فى وقت قصير ، وإننى مضطر إلى الاعتراف بأنه لم ير قط — من خلال النجوم المنتشرة فيها — تلك السماء العليا الجميلة التى يتباهى الراعى ديرهام الشهير ، بأنه رآها بمرقبه الفلكى . وليس معنى هذا أننى أدعى أى السيد ديرهام أساء الرؤية لاقدر الله ! ولكن ميكروميجاس ، كان فى ذات الموضع ، وهو مراقب حاذق ، وأنا لا أريد أن أناقض أحداً .

وبعد أن قام ميكروميجاس بجولته ، وصل إلى زحل . ورغم أنه كان متعودا على رؤية أشياء جديدة ، فإنه حين رأى صغر تلك الكرة وسكانها ، لم يستطع أول الأمر أن يمنع نفسه من ابتسامة الترفع التى تغلب أحيانا أحكم الناس ، لأن زحل بالاختصار ليس أضخم من الأرض إلا تسعمائة مرة ، ولأن مواطنى ذلك البلد أقزام لا يبلغ ارتفاع الواحد منهم إلا ألف تواز[1] أو نحو ذلك .

(١) التواز هو مقياس قديم يوازى مترين تقريبا . (المترجم)

سخر من هذا قليلا فى مبدأ الأمر هو وأتباعه ، كما يشرع الموسيقى الإيطالى فى الضحك من موسيقى لزلى[1] حين يأتى إلى فرنسا . ولكن لما كان قاطن الشعرى ذا عقل مستقيم ، فقد فهم فوراً أن الكائن المفكر قد لا يكون مضحكا لمجرد أن طوله لا يبلغ ستة آلاف قدم .

إستأنس ميكروميجاس بالزحليين بعد أن أدهشهم ، بل لقد عقد صداقة حميمة مع أمين مجمع زحل ، وهو رجل كثير الدعاية لم يبتدع فى الحقيقة شيئاً . ولكنه كان يجيد عرض ابتداعات الآخرين ، وكان ينشئ على صورة مقبولة ، شعرا قصيراً ، وعمليات حسابية كبيرة . وسأنقل هنا إرضاء للقارئ ، محادثة غريبة أجراها ميكروميجاس يوماً مع السيد الأمين .

---

(١) لولى هو موسيقى لويس الرابع عشر المفضل . (المترجم) .

الفصل الثانى

محادثة بين ساكن الشعرى وساكن زحل

بعد أن رقد سعادته واقترب الأمين من وجهه ، قال ميكروميجاس :

— ينبغى الاعتراف بأن الطبيعة كثيرة التنوع .

— نعم إن الطبيعة روضة زهورها ...

— آه دعنا من روضتك .

— إنها كمجموعة من الشقراوات والسمراوات اللواتى زينتهن ...

— أوه ، ماذا أصنع بسمراواتك .

— إنها إذن قاعة لوحات ملامحها ...

فقاطعه ميكروميجاس أيضا قائلا :

— كلا ! وأقول لك مرة أخرى إن الطبيعة هى كالطبيعة ، فلماذا تبحث لها عن تشبيه ؟

— لكى أروقك .

— إنى لا أريد شيئا يروقنى ، ولكنى أريد أن أتعلم ، فابتدئ أولا بأن تقول لى كم لدى بشر كرتكم من حواس ؟

ـــ لدينا منها اثنتان وسبعون حاسة ونحن نشكو من قلتها إذ أن خيالنا يذهب إلى ماوراء حاجاتنا ونجد أننا ـــ مع حواسنا الاثنتين والسبعين ، وحلقتنا المحدقة بنا ، وأقمارنا الخمسة ـــ محدودون أكثر من اللازم ، ونرانا لا نخلو قط من الضجر رغم كل ميلنا إلى الاطلاع ورغم العدد الكبير من الأهواء والعواطف الناتجة من حواسنا الاثنتين والسبعين .

فقال ميكروميجاس :

ـــ إنى لا أجد غرابة فى ذلك لأننا فى كرتنا لدينا ما يقرب من ألف حاسة ، ومع ذلك فلا تزال لدينا رغبة عامة ، أو نوع من القلق يشعرنا بلا انقطاع أننا شىء ضئيل ، وأنه توجد كائنات أدخل منا كثيرا فى باب الكمال . ولقد سافرت قليلا ، فرأيت من الفانين من هم أدنى منا كثيرا ، ورأيت من هم أسمى منا . ولكنى لم أر أى واحد ليس عنده من الرغبات أكثر من الحاجات الحقيقية ، ومن الحاجات أكثر مما ينبغى له أن يقنع به . ومن الممكن أن أصل يوما إلى البلد الذى لا ينقصه شىء . ولكن إلى الآن لم يعطنى أحد أنباء واقعية عن ذلك البلد .

وعندئذ كان الصديقان قد استنفدا قواهما فى الفروض ، ولكن بعد كثير من الاستدلالات الرائعة ، وإن كانت غير مؤكدة ، كان

لا بد لهما من الرجوع إلى الوقائع . وهنا سأل ميكروميجاس قائلا :

ـــ كم من الزمن تعيشون ؟

فأجاب رجل زحل القصير :

ـــ آه قليلا جدا .

ـــ ذلك مثل ماعندنا تماما ، إننا نشكو دائما من القلة ، فلابد أن يكون ذلك قانونا عاما من قوانين الطبيعة .

ـــ واأسفاه ! نحن لا نعيش سوى خمسمائة دورة كبرى من من دورات الشمس (مجموع ذلك خمسة عشر ألف سنة من سنى الأرض) وأنت ترى جيدا أن معنى هذا أن المرء يموت فى اللحظة التى ولد فيها ، وأن وجودنا نقطة ، وأن بقاءنا لحظة ، وأن كرتنا ذرة ولا يكاد ساكنها يبدأ أن يتعلم قليلا حتى يداهمه الموت قبل أن يظفر بالتجربة . أما أنا فإنى لا أجرؤ أن أقوم بأى مشروع ، وأجد نفسى كقطرة من الماء فى محيط ضخم وأشعر بالخجل على الأخص أمامك من المظهر المضحك الذى أبدو به فى هذا العالم .

فأجاب ميكروميجاس قائلا :

ـــ لو لم تكن فليسوفا ، لخشيت أن أحزنك بأن أعلمك أن حياتنا أطول من حياتكم سبعمائة مرة ، ولكنك تعرف تماما ، أنه حين

يتحتم على المرء أن يرد جسمه إلى عناصره، وأن يعيد حياته إلى الطبيعة تحت صورة أخرى — وذلك مايدعى بالموت — عندما تحين لحظة الاستحالة هذه يستوي لديه أن يكون قد عاش دهرا كاملا أو يوما واحدا . ولقد كنت فى بلاد يعيش الناس فيها ألف مرة أكثر مما عندى ، فوجدت أهلها يتذمرون أيضا . غير أنه يوجد فى كل مكان قوم ذوو فطرة سليمة ، يعرفون كيف يوطنون أنفسهم على هذا ، ويشكرون منشيء الطبيعة . إنه أفاض على هذا الكون وفرة من ضروب التنوع هو لون من التساوى جدير بالإعجاب ، فمثلا كل الكائنين المفكرين متباينون ، وكلهم فى الواقع متشابهون فى موهبة الفكر والرغبات ، والمادة هى فى كل مكان ممتدة ، ولكن لها فى كل كرة خواص مختلفة . فكم تعدون من الخواص المختلفة فى مادتكم ؟

— إذا كنت تتحدث عن تلك الخواص التى نعتقد أن هذه الكرة لا تستطيع أن تحيا بدونها على ما هى عليه ، فإننا نعد منها ثلثمائة خاصة كالامتداد ، وعدم التدخل ، والتحرك ، والجاذبية والانقسام وما إلى ذلك .

وهنا قال الرحال :

— الظاهر أن هذا العدد القليل يكفى لتحقيق المقاصد التى وجدت

لدى الخالق عن مسكنكم الصغير ، إننى أعجب بحكمته فى كل شيء ، إذ أنى أرى فى كل مكان اختلافات ، ولكنى أرى فى كل مكان نسبا . فكرتكم صغيرة وسكانها أيضاً ، ولديكم قليل من الأحاسيس ، ومادتكم لها قليل من الخواص ، كل ذلك من فعل العناية . على أى لون شمسكم عندما تختبرونها ؟

— إن لونها أبيض شديد الميل إلى الصفرة ، وحين نحلل أحد أشعتها نجد أنه يحتوى سبعة ألوان .

— إن شمسنا تميل إلى الحمرة ، وعندنا تسعة وثلاثون لونا أوليا . وليس هناك شمس واحدة بين الشموس التى دنوت منها ، تشبه الأخريات ، كما أنه لا يوجد عندكم وجه واحد ليس مختلفا عن كل الوجوه الأخر .

وبعد عدة أسئلة من هذا النوع سأل كم من الجواهر المتباينة تباينا أساسيا يعد الناس فى زحل ، فعلم أنهم لايعدون منها إلا نحو ثلاثين جوهرا كالمكان والمادة والكائنات الممتدة التى تشعر وتفكر ، والكائنات المفكرة التى ليس لها امتداد ، والتى تتداخل ، والتى لاتتداخل وغير ذلك .

أدهش ميكروميجاس كثيرا فيلسوف زحل ، إذ أنبأه بأنهم

يعدون عندهم ثلثمائة جوهر ، وأنه كشف ثلاثة آلاف أخرى فى رحلاته . وبعد أن تبادلا فيما بينهما قليلا مما يعرفان ، وكثيرا مما لا يعرفان ، وبعد أن فكرا فى أثناء دورة من دورات الشمس ، صمما أخيرا على أن يقوما معا برحلة فلسفية قصيرة .

الفصل الثالث

رحلة ساكنى الشعرى وزحل

بينما كان فيلسوفانا يستعدان لأن يرتحلا إلى جو زحل مع ذخيرة هامة من الأدوات الرياضية وإذا بصديقة الزحلى التى وصلتها أنباء الرحيل قد أتت باكية توجه إليهما ضروب تأنيبها وهى سمراء جميلة قصيرة لا يبلغ طولها إلا ستمائة وستين توازاً ، ولكن جمالها قد أعاضها عن قصر قامتها ، فصاحت قائلة :

— أيها القاسى : أبعد أن قاومتك ألفاً وخسمائة سنة قبل أن أحبك فى نهاية الأمر ، ولم أكد أمضى مائة سنة معك تتركنى لترتحل مع عملاق من عالم آخر ؟ اذهب فأنت لست إلا شغوفا بالاستطلاع ولم تكن أهلا للحب قط ، ولو أنك كنت زحليا حقيقيا لكنت وفيا ، أين ستدور ؟ وماذا تريد ؟ إن أقمارنا الخمسة أقل منك دورانا ، وإن حلقتنا أقل تغيراً ، لقد قضى الأمر ولن أحب أحداً بعد الآن .

عند ذلك قبلها الفيلسوف وبكى معها ولو أنه فيلسوف .

وأما السيدة فبعد أن أغمى عليها ، ذهبت لتسرى عن نفسها مع شاب أنيق من شبان البلد .

وفى أثناء ذلك ارتحل مستطلعانا ، فقفزا أول الأمر إلى الحلقة التى ألفياها مفرطحة إلى حدما كما تنبأ بهذا أحد مشاهير سكان كرتنا ، ومن هناك جعلا يذهبان فى يسر من قمر إلى قمر ، واتفق إذ ذاك أن كانت إحدى المذنبات مارة على مقربة من القمر الأخير فقفزا إليها ومعهما خدمهما وأدواتهما . وحين قطعا مائة وخمسين مليون مرحلة تقريبا ، التقيا بأقمار المشترى ، فاجتازاها إلى المشترى نفسه ، وأقاما به سنة علما فى أثناءها بأسرار شيقة كان يمكن أن تكون فى الوقت الحاضر تحت الطبع ، لولا السادة أعضاء محاكم التفتيش الذين وجدوا فيها أقوالا قاسية . غير أنى قرأت هذا المخطوط فى مكتبة الأسقف الماجد ... الذى تركنى أرى كتبه بذلك الكرم وتلك الخيرية اللذين لا يستطيع المرء أن يوفيهما حقهما من الثناء .

ولكن لنعد إلى رحالينا ، فعندما خرجا من المشترى اجتازا مسافة تقترب من مائة مليون مرحلة ، وكانا يسيران إلى جانب كوكب المريخ الذى هو أصغر من كرتنا الصغيرة خمس مرات كما هو معروف . فرأيا قمرين ينيران تلك الكرة ، وقد عزبا عن نظريات الفلكيين .

وإنى أعرف معرفة تامة أن الأب كاستيل سيكتب بل سيسخر من وجود هذين القمرين ، ولكنى سأعتمد فى هذا على أولئك الذين يستعملون القياس فى استدلالاتهم . فأولئك الفلاسفة الأجلاء يعرفون كم يكون من الصعب أن يستغنى المريخ الذى يبعد عن الشمس بهذا القدر عن وجود قمرين على الأقل .

ومهما يكن من الأمر ، فقد وجداه صغيرا إلى حد أن خشيا الا يجدا فيه مرقدا لهما . ومضيا فى طريقهما كما لو كانا مسافرين وجدا حانة رديئة من حانات القرية فازدرياها وذهبا إلى المدينة المجاورة . بيد أن الفريقين لم يلبثا أن ندما ، فقد سارا زمنا طويلا ولم يجدا شيئا ، وأخيرا لمحا وميضا صغيرا : كان هو الأرض . وذلك شىء يستوجب الإشفاق من اثنين آتيين من المشترى . ومع ذلك فلما كانا يخشيان أن يندما مرة ثانية فقد صمما أن ينزلا بها فرا فوق ذيل المذنبة ، وهنا وجدا قوسا لامعا فى الشمال ، فاستقرا فيه ، ووصلا إلى الأرض على الشاطئ الشمالى لبحر البلطيق فى خمسة يولية من سنة ١٧٣٧ .

الفصل الرابع

ماحدث لهما على كرة الأرض

وبعد أن استراحا بعض الوقت ، أكلا فى غدائهما جبلين أعدهما لهما أتباعهما . وعلى أثر ذلك أرادا أن يستطلعا البلد الذى كانا فيه ، فاتجها أولا من الشمال إلى الجنوب . ولقد كانت الخطوة العادية لرجل الشعرى تقرب من ثلاثين ألف قدم ، وكان قزم زحل الذى لم تكن قامته سوى ألفى تواز ، يتبعه على بعد لاهثا ، إذا كان ينبغى له أن يقطع مايقرب من اثنتى عشرة خطوة فى الوقت الذى يقطع فيه الآخر خطوة واحدة : تصور كلبا جد صغير من كلاب السيدات ، يتبع ضابطا من ضباط حرس ملك بروسيا (إذا كان من المسموح إجراء هذا التشبيه) .

ولما كان هذان الأجنبيان يسيران بسرعة كافية ، فقد دارا حول الكرة فى ست وثلاثين ساعة . والحقيقة أن الشمس أو بالحرى أن الأرض تقوم بنفس هذه الرحلة فى يوم واحد . ولكن ينبغى التفكير فى أن السائر يستريح حين يدور حول محوره

أكثر منه حين يمشى على قدميه . هاهما صاحبانا إذن قد عادا من حيث أتيا بعد أن رأيا ذلك المستنقع الذى لا يكاد يلمح بالنسبة إليهما ، والذى يدعى بالبحر الأبيض المتوسط ، وتلك البحيرة الصغيرة التى - تحت اسم المحيط الأكبر - تحيط بجحر النمل .

وعندما اجتازا المحيط وصل الماء إلى منتصف ساق القزم ، ولم يكد يبل عقبي الآخر .

وقد فعلا مااستطاعا ذهابا وإيابا محاولين أن يلمحا ما إذا كانت هذه الكرة مسكونة أو غير مسكونة : فجعلا ينحنيان ويرقدان ، ويتحسسان فى كل مكان ، ولكن أعينهما وأيديهما لم تكن متناسبة مع الكائنات الصغيرة التى تزحف هنا ، ولم يتلقيا أقل إحساس يستطيع أن يجعلهما يشتبهان فى أننا نحن سكان هذه الكرة ، لنا شرف الوجود . ففى مبدأ الأمر جزم القزم الذى كان أحيانا يتسرع فى الحكم ، بأنه لا يوجد على الأرض ، وكان السبب الأول الذى بنى عليه حكمه هو أنه لم ير أحدا ، فأشعره ميكروميجاس فى أدب بأن هذا استنتاج سيء نوعا ، وعلل ذلك بقوله :

ـ إنك لاترى بعينيك الصغيرتين بعض النجوم من ذوات الدرجة الخمسين فى العظم التى ألمحها أنا فى وضوح قوى ، فهل تستنبط من ذلك أن تلك النجوم لا توجد ؟

ــ ولكنى أجدت التلس .

ــ ولكنك أسأت الإحساس .

فرد القزم قائلا :

ــ ولكن الكرة سيئة التكوين ، وصورتها تبدو لى مضحكة ! وكل شىء هنا يبدو فى شكل أخطبوط . فهل ترى هذه الجداول الصغيرة التى لا يجرى أى واحـــد منها فى خط مستقيم ، وهذه البحيرة الصغيرة التى ليست مستديرة ولا مربعة ، ولا بيضاوية وليست لها أية صورة منتظمة ، وهذه الحبوب الصغيرة المدببة التى تتغطى بها هذه الكرة والتى سلخت قدمى ؟ (كان بهذا يريد أن يتحدث عن الجبال) .

وهل تلاحظ أيضا صورة هذه الكرة فى جملتها وكم هى مفرطحة عند القطبين ، وكيف أنها تدور حول الشمس بطريقة تجعل مناخ القطبين غير صالح للزراعة ؟ وفى الحق أن مايحدونى إلى الاعتقاد بأنه لايوجد أحد هنا ، هو أنه يبدو لى أن ذوى الفطرة السليمة ، يعزفون عن الإقامة فيها .

ــ هذا حسن ! فقد يكون الناس الذين يقطنونها ، ليسوا من ذوى الفطر السليمة ولكن مهما يكن من الأمر ، فإن هذا لم يخلق عبثا ، أنت تقول إن كل شىء يبدو لك هنا

غير منتظم لأن كل شيء فى زحل والمشترى مرسوم فى خط مستقيم ، فمن الممكن أنه لهذا السبب ذاته يوجد هنا قليل من الخلط . أفلم أقل لك إنى فى أسفارى لاحظت دائما تنوعا ؟ .

رد الزحلى على كل هذه الأسباب ، ولم تكن المناقشة لتنتهى لولا أن ميكروميجاس ، من حسن الحظ ، قد كسر عقده الماسى وهو يتحمس فى الحديث . سقطت الماسات ، وكانت أحجارا جميلة صغيرة يزن كبراها أربعمائة رطل وصغراها خمسين رطلا فالتقط منها القزم بضعا وعندما أدناها من عينيه لمح أنها منحوتة بصورة فائقة يجعل منها مناظير معظمة فاخرة . وإذ ذاك أخذ منظارا صغيرا قطره مائة وستون قدما ، ووضعه على عينه ، واختار ميكروميجاس واحدة . قطرها ألفان وخمسمائة قدم فكانتا بديعتين ، ولكنهما فى أول الأمر لم يريا شيئا بمساعدتهما ، إذ كان ينبغى ضبطهما . وأخيرا رأى ساكن زحل شيئاً لايكاد يرى ، يبدو متحركا بين ماءين فى بحر البلطيق ، وكان ذلك الشيء حوتا فأخذه بأصبعه الصغيرة بكل مهارة ، ووضعه على ظفر إبهامه ، وأراه لرجل الشعرى الذى شرع يضحك للمرة الثانية من الصغر المفرط الذى كان عليه سكان كرتنا . وعندما اقتنع رجل زحل بأن عالمنا مسكون ، تخيل فى صورة خاطفة ، أنه

لم يكن مأهولا إلا بحيتان . ولما كان منطقيا كبيرا ، فقد أراد أن يتنبأ من أين تلقت ذرة صغيرة إلى هذا الحد أرومتها وحركتها وماإذا كان لها أفكار وإرادة وحرية . وقد أحرج ذلك ميكروميجاس إحراجا عظيما فاختبر ذلك الحيوان فى كثير من الصبر وكانت نتيجة الاختبار أنه لاتوجد وسيلة للظن بأن هناك نفسا تقيم فيه .

وبينما كان الرحالان منعطفين إلى الاعتقاد بإنه لاتوجد روح على كوكبنا إذ لمحا — بمعونة المنظار المعظم — شيئا يوازى الحوت فى الضخامة ويطفو على سطح بحر البلطيق . ويعرف الناس أن حفنة من الفلاسفة ، كانت عائدة فى ذلك الوقت عينه من الدائرة القطبية بعد أن أجروا عنها ملاحظات لم يكن أحد قد فكر فيها إلى ذلك الحين . وقد قالت الصحف ، إن سفينتهم جنحت فى خليج بوتنى وإنهم عانوا مشقة فى النجاة . غير أنه لايعرف أحد فى هذا العالم ألبتة ما وراء الستار ، وإنى سأقص فى بساطة كيف وقع الحديث دون أن أضيف إليه شيئا من عندى وليس ذلك بجهود يستهان به بالنسبة إلى المؤرخ .

الفصل الخامس

تجارب الرحالين واستدلالاتهما

مد ميكروميجاس يده فى تمهل نحو الموضع الذى كان ذلك الشىء يبدو فيه ، وقدم أصبعين من أصابعه ولكنه قبضهما خوفا من أن ينخدع ثم بسطهما من جديد وأمسك السفينة التى تحمل أولئك السادة بمهارة ووضعها أيضا فوق ظفره ، دون أن يفرط فى ضغطها خوفا من أن يسحقها. وإذ ذلك قال قزم زحل :

— ها هو ذا حيوان يختلف جد الاختلاف عن الأول .

ووضع رجل الشعرى الحيوان المزعوم فى كفه. وهنا ظن الركاب والبحارة أن زوبعة قد اختطفتهم وحسبوا أنفسهم فوق صخرة فراحوا يتحركون. وأخذ البحارة براميل النبيذ فألقوا بها على يد ميكروميجاس، وقذفوا بأنفسهم فى أثرها .وأخذ المهندسون آلاتهم العلمية ، وفتاتين لابونيتين كانتا معهم ونزلوا فوق أصابع رجل الشعرى وكان الجميع هائجين إلى حد أن انتهى هذا الأخير بأن أحس أن شيئا يشك أصابعه ، وكان ذلك عصا

مصفحة بحديد مدبب غمست فى سبابته مقدار قدم . وهنا استنتج أن شيئا قد خرج من الحيوان الصغير الذى يمسكه ، ولكنه لم يشتبه فى أكثر من ذلك . ولا جرم أن المنظار المعظم الذى لم يوشك أن يحقق تمييز الحوت من السفينة لم يكن له تأثير بالنسبة لكائنات غير مرئية كالبشر . إنى لا أقصد هنا أن أحرج غرور أحد ، ولكننى مضطر إلى أن أرجو ذوى الأهمية أن يشاركونى فى الملاحظة الصغيرة التالية : إذا افترضنا أن قامة الإنسان تبلغ خمس أقدام تقريبا فإننا لا نبدو على سطح الأرض صورة أكبر مما يبدو على كرة دائرتها عشر أقدام حيوان يبلغ طوله جزءا من ستمائة ألف من البوصة ، أو تصور جوهرا يستطيع أن يأخذ الأرض بيده ، وأن يكون له أعضاء تحتفظ بالنسبة بينها وبين أعضائنا ، فإنه من الممكن أن يكون هنا عدد جد كبير من هذه الجواهر . وبناء على ذلك أرجوك أن تدرك ماذا عسى أن تعتقد هذه الجواهر فى تلك المعارك التى تكسب المنتصر قرية ليفقدها بعد ذلك .

أية مهارة خليقة بالإعجاب لابد أن تتوفر لفيلسوفنا ساكن الشعرى لكى يلمح الذرات التى تحدثت عنها آنفاً ؟ وعندما كان لو ڤينهوك وهارسوكير أول من رأيا أو حسبا أنهما رأيا

الجرثومة التى تكونا منها ، لم يقوما بكشف مدهش إلى هذا الحد ، بل كانا بعيدين عن ذلك ، وما أعظم السرور الذى شعر به ميكروميجاس حين رأى هذه المكنة الصغيرة واختبر كل حركاتها وتتبع كل عملياتها ، ولكم صاح متعجبا ، وما كان أشد سروره حين وضع بين يدى صاحبه ، أحد مناظيره المعظمة ، وصاحا كلاهما فى الوقت ذاته قائلين :

— إنى أراهم ! هل تراهم يحملون أعباء ، وينحنون وينهضون ؟

كانت أيديهما وهما يتحدثان على هذا النحو ، تضطرب بسبب السرور لمرآى أشياء جديدة إلى هذا الحد وللخوف من فقدها . ولقد تحول رجل زحل من الإفراط فى الحذر إلى الإفراط فى التصديق ، فراح يسرف فى إصدار الفروض التى لا يمكن أن تقوم على دليل .

غير أنه كان مخدوعا فى الظواهر ، وهو ما يحدث فى غالب الأحيان سواء استخدم المنظار المعظم أو لم يستخدمه .

الفصل السادس

ما حدث لهما عند البشر

كان ميكرميجاس أكثر ملاحظة من قزمه إذ رأى فى وضوح أن الذرات التى أمامه كانت تتحدث ، فلفت إلى ذلك نظر صاحبه الذى شعر بالخجل من فشل فروضه السابقة ، فلم يرد أن يصدق أن أنواعا كهذه يمكن أن تتبادل الأفكار .

كانت موهبة اللغة عنده توازى مثلها فى القوة لدى رجل الشعرى فلما لم يسمع ذراتنا تتحدث ، فرض أنها لاتتكلم . على أنه كيف يمكن أن يكون لهذه الكائنات غير المرئية أعضاء صوت ، وفيم تتحدث ؟ إذ لكى يتحدث الكائن ، ينبغى له أن يفكر أو ما يقرب من ذلك ، وإذا كان يفكر ، كان لديه إذن ما يعادل النفس . ولا ريب أن القول بوجود معادل للنفس لدى هذا النوع قد بدا له غير معقول . فرد عليه رجل الشعرى بقوله :

ـ ولكنك قد حسبت منذ لحظة أن هذه الذرات تتناسل ، فهل تظن أنه يمكن التناسل دون تفكير ودون تلفظ ببعض الكلمات

أو على الأقل دون تفاهم ؟ وهل تراك تفرض كلا الأمرين ؟
فأجاب القزم قائلا :

— إنى لم أعد أجرؤ على التصديق ولا على الإنكار ، ولم يعد لدى رأى ، فينبغى محاولة فحص هـــذه الحشرات ، وسنستدل بعد ذلك .

— هذا قول حسن .

وعلى أثر ذلك أخرج ميكروميجاس مقراضا قص به أظافره ومن قلامة ظفر إبهامه صنع بوقا كبيرا متكلما ، يشبه القمع الواسع ووضع أنبوبته فى أذنه ، وجعل إطار ذلك القمع يحدق بالسفينة والبحارة بصورة تجعل أضعف الأصوات يدخل فى ألياف الظفر المستديرة ، فأصبح فليسوف العالم العلوى ، بفضل مهارته ، يسمع تماما طنين حشراتنا الأرضية . وفى قليل من الساعات وصل إلى تمييز الكلمات ، وأخيرا وصل إلى فهم الفرنسية ، وفعل القزم مثل هذا الفعل ولو أن ذلك كان بصعوبة أكثر . ولقد تضاعفت دهشة الرحالين فى كل لحظة لأنهما كانا يسمعان سوسا يتحدث حديث الفطرة السليمة . فكان هذا اللعب من جانب الطبيعة يبدو لهما غير قابل التفسير ، وازدادت رغبتهما فى إجراء محادثة مع تلك الذرات ، وكان القزم يخشى أن صوته الذى يشبه الرعد وأن صوت ميكروميجاس

على الأخص يصمان آذان السوس دون أن يفهمها ، وإذن فينبغى تقليل قوته . فوضعا فى أفواههما نوعا من المساويك التى جعلا أطرافها المدببة تقترب من السفينة .

كان رجل الشعرى يجلس القزم على ركبتيه ، وكانت السفينة والبحارة لا يزالون على ظفره ، فحنى رأسه وجعل يتكلم بصوت خافت بعد أن اتخذ كل هذه الاحتياطات ، واحتياطات كثيرة أخرى ، وبدأ حديثه على النحو التالى :

ـ أيتها الحشرات غير المرئية التى قد راق يد الخالق أن تنشئها فى هوة الصغر غير المتناهى ، إننى أشكره على ماتفضل فكشف لى من أسرار كانت تبدو غير ممكنة الاكتناه . من الممكن ألا يتنزل أمثالى إلى أن ينظروا إليكم ولكنى لا أحتقر أحدا ، وإنى أعرض عليكم حمايتى .

إذا كان هناك من بلغت بهم الدهشة أقصى مداها ، فهم القوم الذين سمعوا هذه الكلمات ، إذ أنهم لم يكونوا ليستطيعوا التنبؤ بمصدرها : فقسيس السفينة تلا الصلوات التى تطرد الشيطان ، والبحارة أخذوا يجدفون بعبارات مختلفة ، والفلاسفة جعلوا يشيدون نظريات ولكنهم ـ مهما تكن النظريات التى شيدوها ـ لم يستطيعوا ألبتة أن يتنبئوا بمن يتحدث إليهم . ولما كان صوت

قزم زحل أكثر عذوبة من صوت ميكروميجاس ، فقد أعلمهم فى قليل من الكلمات بحقيقة اللذين يتصلان بهم ، وقص عليهم رحلة ميكروميجاس إلى زحل ، وعرفهم من هو ، وبعد أن رثى لهم أنهم صغار إلى هذا الحد ، سألهم عما إذا كانوا دائما فى هذه الحالة اليائسة القريبة من العدم إلى هذه الدرجة ، وعما يعملون فى كرة يبدو أنها مملوكة للحيتان ، وعما إذا كانوا سعداء ، وإذا كانوا يتكاثرون ، وإذا كان لهم نفوس ، ومائة سؤال أخرى من جميع الأنواع .

غير أن أحد مفكرى الجماعة كان أجرأ من الآخرين ، وكان قد جرحه أن رأى أحدا يشك فى أن له نفسا ، فراقب محدثه بوساطة أجهزته الهندسية وغير موضعه مرتين ، وأجرى عمليته الحسابية ، ثم غير مكانه مرة ثالثة ، وأخير تحدث على النحو التالى :

ـــ أتحسب إذن ياسيدى ، بسبب طولك الذى يبلغ ألف تواز من رأسك إلى قدميك ، أنك أحد ...

ولكن القزم قاطعه قائلا :

ـــ ألف تواز ! يا إلهى ! كيف استطاع معرفة طولى ؟ ألف تواز ! ولم ينخدع فى بوصة واحدة ، ماذا ؟

أقدرت هذه الذرة أن تقيسنى ! إنه مهندس ويعرف طولى ، وأنا الذى لا أراه إلا من خلال المنظار المعظم ، لا أعرف حتى الآن طوله !

— نعم إننى قستك وسأقيس أيضاً صاحبك الطويل بكل دقة .

وهنا قبل ميكروميجاس العرض ، وتمدد سعادته بكل طوله ، لأنه لو ظل واقفا ، لتجاوز رأسه السحاب كثيراً ولتعذر بالتالى قياسه . وإذ ذاك غرس فلاسفتنا شجرة كبيرة فى موضع من جسمه كان لابد للدكتور سويفت أن يسميه لو كان فى موقفى ، ولكنى أمتنع عن ذكر اسمه بسبب احترامى العظيم للسيدات . وبعد ذلك استنبطوا - بواسطة سلسلة من مثلثات متصلة معا - أن يرونه فى الواقع شابا طوله مائة وعشرون ألف قدم .

وعندئذ نطق ميكروميجاس بهذه الكلمات :

— إنى أرى أكثر من ذى قبل ، أنه لا ينبغى الحكم على شىء بمقتضى عظمه الظاهرى . إيه أيها الإله ! أنت الذى منحت عقولا لجواهر تبدو خليقة بالاحتقار إلى هذا الحد ، إن ما لا يتناهى فى الصغر هو بإزائك كاللامتناهى فى العدم . وإذا كان من الممكن أن تكون هناك كائنات أصغر من هذه ،

فمن الممكن أن يكون لها أيضاً عقول أسمى من عقول تلك الحيوانات البديعة التي رأيتها في السماء ، والتي قد تغطي قوائمها الكرة التي نزلت إليها .

وحينئذ أجابه أحد الفلاسفة بأنه يستطيع أن يؤمن في يقين ، بأنه يوجد في الواقع كائنات حاقلة أصغر كثيراً من الإنسان . ولم يرو له كل ما قاله فرجيل من خرافات عن النحل ولكنه حدثه عما كشفه سوامردام ، وعما قام بتشريحه ريومور . وأخيراً أعلمه بأنه توجد حيوانات نسبتها إلى النحل كنسبة النحل إلى الإنسان ، أو نسبة رجل الشعرى نفسه إلى هذه الحيوانات الضخمة التي يتحدث عنها ، أو نسبة هذه الحيوانات العظمى إلى جواهر أخرى ، لا تبدو تلك الحيوانات العظمى أمامها إلا كذرات . وهنا أخذت المحادثة تبدو شيقة قليلا قليلا ، وأخذ ميكرميجاس يتحدث على النحو التالي :

الفصل السابع

محادثة مع البشر

إيه ! أيها الذر العاقل الذى راق الموجود الأزلى أن يبرز فيه مهارته وقدرته ، لابد أنكم تتمتعون بمباهج جد صافية على كرتكم لأنكم — وأنتم لا تشتملون إلا على قليل من المادة وتبدون كأنكم أرواح خالصة — لابد تمضون حياتكم فى الحب والتفكير ، وتلك هى الحياة الحقيقية للأرواح . إنى لم أر السعادة الحقة فى أى مكان ، ولكنها هنا بلا شك .

وعند سماع هذا الحديث هز جميع الفلاسفة رءوسهم نفيا ، بل إن أحدهم ، وكان أصرح من الآخرين ، اعترف فى حسن نية بأنه إذا استثنى عدد ضئيل من السكان ، كان الباقى كله مجموعة من المجانين والحبلاء وأضاف إلى ذلك قوله :

— لدينا من المادة أكثر مما ينبغى لكى نرتكب كثيرا من الشر إذا كان الشر آتياً من المادة ، ولدينا قدر مفرط من الروح

إذا كان الشر آتيا من الروح . فهل تعرف مثلا أنه فى هذه الساعة التى أتحدث إليك فيها ، يوجد مائة ألف مجنون من نوعنا على رءوسهم قبعات ، ومائة ألف من أشباههم على رءوسهم عمائم ، أو أن الأولين يذبحون بأيدى الآخرين ، وأن هذا هو الذى يجرى فى كل الأرض تقريبا منذ الزمن الذى يعزب عن الذاكرة .

وإذ ذاك انتفض رجل الشعرى وسأل عما عسى أن يكون موضوع هذه المشاجرات الفظيعة بين حيوانات هزيلة إلى هذا الحد ، وأجاب الفيلسوف بقوله :

— إن هذا الأمر يتعلق بقطعة من الوحل يوازى مقدارها كعب قدمك . وليس معنى هذا أن أى واحد من ملايين البشر هذه التى تتبادل التذبيح ، يدعى أنه سيظفر بقشة من هذه الكومة من الوحل ، بل إن الأمر لايتعلق إلا بمعرفة ما إذا كانت هذه الأخيرة سيملكها رجل يدعى بالسلطان أو آخر يدعى ـ ولم أدر لماذا ـ بالقيصر . ولم ير كلاهما قط ، ولم يريا أبدا ذلك الركن الصغير من الأرض الذى هو موضوع النزاع . ولم ير قط أى واحد تقريبا من تلك الحيوانات التى تتبادل التناحر ، ذلك الرجل الذى يتبادلون التذبيح من أجله .

وحينئذ صاح رجل الشعرى فى سخط قائلا :

ـ آه أيها التعساء ! أيمكن تصور هذا الإفراط فى الغضب الجنونى ؟ إننى أرغب فى أن أخطو ثلاث خطوات لـكى أسحق بثلاث ركلات من قدمى هذا الوكر النحلى الملىء بالقتلة المضحكين .

فأجابه الفيلسوف بقوله :

ـ لاتتعب نفسك فى ذلك ، فهم أنفسهم يعملون على خرابهم بالقدر الـكافى . واعلم أنه لن تمر عشرة أعوام حتى لايبقى فى جميع هذه الجيوش جزء من مائة من أولئك التعساء . واعلم أنهم حتى إذا لم يجردوا السيوف ، فإن الجوع أو التعب أو الشراهة ستقضى عليهم جميعا تقريبا . على أنه ليس هؤلاء هم الذين ينبغى عقابهم ، وإنما هم أولئك البرابرة الدائمون الذين يقبعون فى مكاتبهم لـكى يهضموا ماامتلأت به بطونهم يصدرون الأوامر بذبح مليون من الرجال ، ثم بعد ذلك يشكرون الله فى حفل رسمى محفوف بالجلال .

شعر الرحال بالإشفاق على الجنس البشرى الصغير الذى تبين فيه متناقضات مدهشة إلى هذا الحد ، وقال لهؤلاء السادة :

ـ مادام أنكم من العدد الصغير من الحكماء ، وأنكم على مايظهر لاتقتلون أحدا من أجل المال ، فقولوا لى ، أرجوكم ، بماذا تشتغلون ؟

فأجاب الفيلسوف بقوله :

ـــ نحن نشرح الذباب ، ونقيس الخطوط ونجمع الأعداد ، ونحن متفقون على نقطتين أو ثلاث نقط نفهمها ، ونتنازع على ألفين أو ثلاثة آلاف لا نفهمها .

وعلى أثر هذا تملكت رجلي الشعرى وزحل الرغبة فى أن يستجوبا هذا الذر المفكر ليعرفا على ماذا هم متفقون ، فسأل رجل زحل :

ـــ كم تعدون من المسافة بين كوكب الشعرى والكوكب الأكبر من « التوأمين » ؟

فأجابوا جميعا فى صوت واحد قائلين :

ـــ اثنين وثلاثين درجة ونصف درجة :

ـــ وكم تعدون من هنا إلى القمر ؟

ـــ قدر نصف قطر الأرض ستين مرة تقريبا .

ـــ وكم يزن هواؤكم ؟

وبهذا السؤال كان يظن أنه أعجزهم ، ولكنهم جميعا قالوا له : إن الهواء يزن أقل من نفس حجمه من أخف ماء ، تسعمائة مرة ، وأقل من ذهب الدوكا[1] تسعة عشر ألف مرة . دهش قزم زحل

---

(١) الدوكا هى عملة ذهبية أوربية قديمة تساوى عشرة فرنكات تقريبا . المترجم

من أجوبتهم ومال إلى أن يعتبر أولئك القوم الذين أبى أن يعترف لهم بنفوس قبل ذلك بربع ساعة من السحرة . وحينئذ قال لهم ميكروميجاس :

— مادمتم تجيدون إلى هذا الحد معرفة ماهو خارجكم ، فإنكم بلاشك تعرفون أيضا بصورة أفضل ماهو داخلكم . فقولوا لى مانفسكم ، وكيف تؤلفون أفكاركم ؟

وهنا أجاب الفلاسفة جميعا مرة واحدة كما حدث ذلك من قبل ، ولكنهم جميعا أبدوا آراء مختلفة ، فذكر أسنهم نصوص أرسطو ، ونطق آخر باسم ديكارت ، ونطق هذا اسم ماليبرانس ، وذاك اسم ليبنيز ، وذلك الآخر فى النهاية اسم لوك . وقال مشائى مسن فى ثقة :

— النفس هى انتليكية[1] وعقل وقد صار لها بفضلهما القدرة على أن تكون على ما هى عليه . وذلك هو مايعلنه أرسطو حرفيا فى صفحة ٦٣٣ من طبعة اللوفر .

ثم طالع النص ، ولكن العملاق صرخ قائلا :

---

(٢) انتليكية كلمة ابتدعها أرسطو معناها الفعل الذى تم وتحقق ونال صورته الواقعية ، والذى هو مضاد لما بالقوة . ومن معانيها أيضا الصورة كما فى العبارة الشهيرة : « النفس هى انتليكية الجسم » أى صورته . (المترجم)

ـ إنى لا أفهم الإغريقية جيدا .

فقالت السوسة الفلسفية :

ــ ولا أنا أيضا .

ــ لماذا إذن تذكر بالإغريقية نص من يدعى بأرسطو ؟

ــ ذلك لأنه ينبغى للمرء أن يذكر مالا يفهمه أصالة بأقل اللغات فهما لديه .

وحينئذ بدأ الديكارتى الحديث فقال :

ــ النفس هى روح نقية تتلق فى بطن أمها كل الفكر الميتافيزيقية ، وحين تخرج من ذلك الموضع ، تكون مضطرة إلى الذهاب إلى المدرسة لكى تتعلم من جديد ما عرفته جيدا من قبل ولن تعرفه فيما بعد

ــ لم يكن من المهم إذن أن تكون نفسك جد عالمة فى بطن أمك لكى تكون جاهلة إلى هذا الحد عندما تصبح لك لحية فى ذقنك . ولكن ماذا تقصد من كلمة روح ؟

فأجاب المنطيق قائلا :

ــ عم تسألنى هنا ؟ ليس لدى عن ذلك أية فكرة . يقال إنها ليست هى المادة .

ــ ولكن على الأقل هل تعرف ما هى المادة ؟

— إنى أعرفها جيداً ، فمثلا هذا الحجر رمادى ، وله صورة كذا ، وثلاثة أبعاد ، وهو ذو ثقل وقابل الانقسام .

فقال رجل الشعرى :

— حسن ! ولكن هذا الشيء الذى يبدو لك قابلا للانقسام وثقيلا ورمادى اللون ، أتستطيع أن تقول ماهو ؟ إنك ترى بعض أعراض الشيء ولكن هل تعرف جوهره ؟

— كلا .

— إذن أنت لا تعرف ما هى المادة .

وعند ذلك وجه السيد ميكروميجاس الكلام إلى حكيم آخر كان يحمله على إبهامه ، فسأله ماهى نفسه ، وماذا تفعل ، فأجاب الفيلسوف الماليبرانشى قائلا :

— إنها لا تفعل شيئا إطلاقا ، وإنما الإله هو الذى يفعل لى كل شيء . إنى أرى فيه كل شيء ، وهو الذى يفعل كل شيء دون أن أقحم نفسى فى شيء .

— فى هذه الحالة يصبح وجودك وعدمك سواء .

وبعد ذلك قال حكيم الشعرى لليبنتزى كان هناك :

— وأنت يا صديقى ماهى نفسك ؟

— إنها عقرب تعين الساعات فى أثناء إيقاع جسمى أجراسها ،

أو إذا أردت ، إنها هى التى تقرع الأجراس بينما يقوم جسمى بتعيين الساعات ، أو إن نفسى هى مرآة الكون ، وجسمى هو إطار المرآة ، كل ذلك واضح .

وكان هناك على مقربة منه نصير صغير من أنصار لوك ، فحينما وجه إليه الحديث أخيراً أجاب بقوله :

— إنى لا أدرى كيف أفكر قط إلا عن طريق حواسى . أما أن تكون هناك جواهر غير مادية وعاقلة فذلك أمر لا أرتاب فيه ، ولكن أن يكون مستحيل على الإله أن ينقل الفكر إلى المادة ، فذلك ما أشك فيه شكا قويا . إنى أجل القدرة الأزلية وليس من اختصاصى أن أحدها . إنى لا أجزم بشىء ، بل أكتفى بالاعتقاد بأنه توجد أمور ممكنة أكثر مما يظن .

ابتسم حيوان الشعرى ، ولم يجد أن هذا الأخير أقل أصحابه حكمة . أما قزم زحل فإنه ود أن يعانق نصير لوك لولا التطرف فى فقدان التناسب بينهما ، ولكن كان هناك لسوء الحظ حيوان قصير ذو قبعة مربعة ، فقطع الحديث على جميع الفلاسفة الآخرين معلنا أنه يعرف كل السر ، وأن كل ذلك موجود فى « مجموعة القديس توماس » . ونظر بازدراء إلى ساكنى السماء من أعلاها إلى أدناها ، وجزم لهما بأن أشخاصهم وعوالمهم وشموسهم ونجومهم لم تخلق إلا من

أجل الإنسان وحده . وعندما سمع رحالانا هذا الحديث جعل كل منهما يتمايل على الآخر مختنقين من ذلك النوع من الضحك الذى لايخمد ، والذى هو من خصائص الآلهة كما يقول هوميروس . وكانت أكتافهما وبطونهما تروح وتغدو . وإنهما لعلى هذا الاهتزاز الشبيه بالتشنج ، إذ بالسفينة التى كان رجل الشعرى يحملها على ظفره ، قد سقطت فى أحد جيوب سروال رجل زحل فبحث عنها وقتا طويلا . وأخيرا عثر على الفرقة وضبطها ضبطا دقيقا . وهنا تناول رجل الشعرى السوس الصغير من جديد ، وتحدث إليهم بكثير من الخيرية ، ولو أنه كان غاضبا قليلا من أعماق قلبه من ملاحظته أن اللامتناهين فى الصغر ينطوون على كبرياء توشك أن تكون لامتناهية فى العظم . وقد وعدهم أن يؤلف لهم كتابا قيما فى الفلسفة مكتوبا بخط جد دقيق ليلائم استعمالهم ، وأخبرهم بأنهم سيرون فى هذا الكتاب أعمق الأشياء . وفى الواقع أعطاهم هذا المجلد قبل رحيله ، فحملوه إلى مجمع العلوم فى باريس ولكن عندما فتحه سكرتيره المسن ، لم ير سوى ورق ناصع البياض ، وهنا قال :

ــ آه ، لقد توقعت ذلك .

أذنا الكونت دى تشيسترفيلد

Les Oreilles Du Comte De Chesterfield

« أذنا الكونت دى تشيسترفيلد » هو أحد مؤلفات ڤولتير فى شيخوخته ، وهو لا يتطاول إلى شاعرية « كانديد » وقد اخترناه لأن القارئ سيجد فيه تحت صورة جد بسيطة الجانب الجوهرى من فكر ڤولتير الميتافيزيقية ، كما سيظفر - عن طريق مطالعة بعض مواد « القاموس الفلسفى » - بالجانب الجوهرى من الفكر الأخلاقية والسياسية فى هذا المؤلف .

الفصل الأول

آه ! إن القدر يسيطر على كل شئون هذا العالم بلا رحمة . وإنى أحكم على ذلك بمغامرتى هذه كما يقتضى العقل .

كان اللورد تشيسترفيلد يحبنى كثيراً ، وقد وعدنى بأن يقدم إلى مكرمة ، فلم أكد أسمع بخلو وظيفة من الوظائف التى يملك هو التعيين فيها حتى أسارع مبتهجاً بالذهاب إليه فى لندن وأتقدم إلى اللورد ، وأذكره بوعوده ، فيضغط على يدى فى ود ، ويقول لى : فى الواقع إن وجهك تلوح عليه علائم التعب ، وأجيبه بأن أكبر آلامى هو الفقر ، فيقول لى بأنه سيبرئنى من مرضى ، ولا يلبث أن يعطينى رسالة إلى السيد سيدراك الذى يقيم على مقربة من جيدهول . ولا أرتاب فى أن يكون السيد سيدراك هو الذى بيده أن يرسل إلى مرتب منصبى الكنسى المرتجى ، فأسرع إليه . وعلى أثر ذلك يشرع السيد سيدراك ـ وهو جراح اللورد ـ فى الاستعداد لفحصى بالمجس ويؤكد لى أنه إذا كان لدى حصاة المثانة ، فإنه سيجرى لى العملية بنجاح .

ومما تجدر معرفته أن اللورد كان قد سمع أن لدى ألما شديداً في المثانة ، وأنه أراد ، كما يقتضى كرمه العادى ، أن تجرى لى العملية على نفقاته . فقد كان أصم مثل السيد شقيقه ، ولم أكن أعلم ذلك بعد .

وفى أثناء الوقت الذى أضعته فى الدفاع عن مثانتى ضد السيد سيدراك الذى كان يصر على لحصى بالجس على أية حال ، كان واحد من منافسى الاثنين والخمسين الذين يتطلعون إلى نفس المنصب ، قد وصل إلى اللورد وطلب المنصب وظفر به .

وكنت مغرما بالآنسة فيدلير التى كان متفقا أن أتزوج بها عندما أكون قسيسا ، ففاز خصمى بوظيفتى وبحبيبتى .

وعندما علم الكونت بكارثتى وخطئه ، وعدنى بإصلاح كل شىء ، ولكنه توفى بعد يومين من ذلك .

أبان لى السيد سيدراك بوضوح تام ، أن شفيعى الخير لم يكن يستطيع أن يعيش دقيقة واحدة أكثر مما عاش بسبب الحالة الراهنة لأعضائه ، وأثبت لى أن صممه لم يكن يرجع إلا للجفاف التام فى حبل أذنه وطبلتها ، بل عرض على أن يجفف لى أذنى بالكحول لكى يجعلنى أشد صمما من أى عضو فى مجلس اللوردات .

وحينئذ فهمت أن السيد سيدراك رجل جد عالم، وقد ألهمنى الميل إلى علم الطبيعة . ورأيت أيضا أنه رجل محسن ، وأنه سيجرى لى العملية مجانا لو دعت الحالة إلى إجرائهـــا ، وأنه سيخفف آلامى فى جميع الأحداث التى يمكن أن تقع لى حول عنق المثانة . وإذن فقد شرعت فى دراسة الطبيعة تحت توجيهه لكى أتعزى عن فقد منصبى وعن حبيبتى .

الفصل الثانى

بعد كثير من الملاحظات التى أجريتها على الطبيعة بحواسى الخمس وبالمناظير المعظمة ، قلت للسيد سيدراك :

ـــ إن الناس يسخرون منا فلا توجد طبيعة ، وإنما هناك فن فقط . وبوساطة فن جدير بالإعجاب ، ترقص كل الكواكب فى نظام حول الشمس ، بينما تدور الشمس حول نفسها . وينبغى يقينا أن يكون هناك كائن ما عنده من العلم ماعند جمعية لندن الملكية ، وأنه هو الذى نظم الأمور بحيث إن عامل التربيع لدورات كل كوكب يكون دائما متناسبا مع جذر المسافة من سطحها إلى مراكزها . وينبغى أن يكون المرء ساحرا ليتنبأ بذلك .

ولا جرم أن ظاهرة المد والجزر فى تاميزنا ، تبدو لى نتيجة دائمة لفن ليس أقل عمقا ، ولا معرفته أقل صعوبة من سالفه .

إن الحيوانات والنباتات والمعادن ، وبالإجمال كل شىء يبدو لى منظما بوزن وقياس وعد وحركة ، كل شىء ، لولب ورافعة

ومكنة مائية ، ومعمل كيميائى ، من العشب إلى السنديانة ومن البرغوث إلى الإنسان ، ومن وحدة الرمل إلى السحب . وبالتأكيد لا يوجد إلا الفن ، وأما الطبيعة فوهم .

وهنا أجابنى السيد سيدراك قائلا :

ـــ إنك على حق ، ولكنك لم تبتدع ذلك ، فقد قاله من قبل أحد الحالمين فيما وراء المانش ولكن لم يلتفت إليه أحد .

ـــ إن مايدهشنى ويروقنى أكثر من كل شيء هو مانلاحظه من أن هذا الفن الذى لا يقبل الفهم ، يجعل كل مكنتين تنتجان دائما ثالثة وإنى لساخط على أنى لم أنتج مع الآنسة فيدلير مكنة ثالثة ولكنى أرى أنه قد رتب منذ الأزل أن تلتقى الآنسة فيدلير بمكنة أخرى غيرى .

ـــ إن هذا الذى تقوله أيضا قد قيل ، وهذا أفضل ، لأنه يرجح أنك تفكر تفكيرا مضبوطا . نعم إنه لمما يروق أن ينتج كائنان كائنا ثالثا ، ولكن ذلك ليس حقا بالنسبة إلى كل الكائنات ، فالوردتان لاتنتجان وردة ثالثة بتبادلهما القبلات ، والحجران أو المعدنان لا ينتجان ثالثا ، ومع ذلك فإن المعدن والحجر شيئان لا تستطيع كل الصناعات البشرية أن تصنعهما . إن المعجزة العظيمة الجميلة الدائمة هى أن الفتى والفتاة معا ينتجان

طفلا ، وأن البلبل ينتج بلبلا صغيراً من بلبلة لا من قبرة . وينبغي للمرء أن يمضي نصف حياته في محاكاة ذلك ، والنصف الآخر في تمجيد من ابتدع هذا المنهج .

يوجد في التناسل كثير من الأسرار الشديدة الغرابة ، ويقول نيوتون : إن الطبيعة تتشابه في كل موضع «Natura est bique Sibi Consona» ولكن هذا زائف فيما يتعلق بالاجتماع الجنسي فالأسماك والزواحف والطيور لا تقوم بذلك الاجتماع مثلنا ، فهناك تنوع لا يتناهى ، وهذا التكوين للكائنات الحساسة الفعالة يروقني . وكذلك النباتات لها قيمتها ، وأنا لا أزال دهشا من أن أرى حبة من القمح تلقى في الأرض فتنتج عدة حبات أخرى . فقلت له بالحماقة التي كنت عليها إذ ذاك :

ــ آه ذلك لأن القمح يجب أن يموت لكي ينشأ كما قيل لنا في المدرسة .

وحينئذ صحح السيد سيدراك رأيي وهو يضحك في كثير من الحيطة فقال :

ــ كان ذلك حقا في وقت المدرسة ولكن أقل الزراع اليوم يعرف جيدا أن هذا غير معقول .

ــ آه ياسيد سيدراك إني أسألك الصفح ، فقد كنت لاهوتيا ، والمرء لا يتخلص دفعة واحدة من عاداته .

الفصل الثالث

وبعد بضعة أيام من تلك المحادثة التى دارت بين القس المسكين جودمان وعالم التشريح الماهر سيدراك ، التقى به هذا الجراح فى حديقة سان چيمس وكان غارقا فى أفكاره وأحلامه وعليه علائم الحيرة أكثر من أحد علماء الجبر حين ينتهى إلى نتيجة زائفة ، فقال له سيدراك :

— ماذا عندك ؟ أهى المثانة التى تعذبك أم المعى الغليظ ؟

— لا ، وإنما هى المرارة ، فقد رأيت الآن فى مركبة جميلة أسقف جلوشستر وهو حذلاق ثرثار وقح ، وكنت أنا أسير على قدمى ، فأسخطنى ذلك . وقد فكرت أنى لو أردت أن أنال أسقفية فى هذه المملكة ، لكان هنالك عشرة آلاف احتمال الا أنالها ضد احتمال واحد فى جانبى ، لأننا عشرة آلاف قسيس فى انجلترا ، ولأنى بلا حماية منذ وفاة اللورد تشسترفيلد الذى كان أصم . وإذا افترضنا أن لكل واحد من العشرة آلاف قس أنجليكانى ، حاميين اثنين ، فإنه سيكون هناك فى

هذه الحالة عشرون ألف احتمال ضد احتمال واحد لأن أظفر بأسقفية ، وذلك يغضب المرء حين يفكر فيه .

وقد تذكرت أنه عرض على فيما مضى أن أذهب إلى الهند بصفتى صبى بحار . وقد أكد لى البعض أننى سألقى هناك حظاً عظيما ، ولكنى لم أشعر فى نفسى بالقدرة على أن أصبح ، فى يوم ما ، أمير بحر . وبعد أن اختبرت كل المهن ، بقيت قسيسا دون أن أكون غير صالح لشىء .

— لاتكن قسيسا بعد الآن ، وكن فيلسوفا ، فهذه المهنة لاتتطلب الثراء ولاتؤتيه . ما دخلك ؟

— ليس لدى دخل سوى ثلاثين جنيها ، وبعد وفاة عمتى العجوز سيكون دخلى خمسين .

— هيا ، ياعزيزى جودمان ، حسبك هذا لكى تعيش حرا ، ولكى تفكر ، فثلاثون جنيها تحتوى ستمائة شلن ، أى بواقع شلنين فى اليوم تقريبا . وبهذا الدخل المحقق ، يستطيع المرء أن يقول كل مايعتقده عن شركة الهند وعن البرلمان ، وعن مستعمراتنا ، وعن الملك ، وعن الكائنات بوجه عام ، وعن الإنسان ، وتلك تسلية عظيمة . تعال فتغد معى ، فذلك

سيوفر عليك شيئا من النقود . وسنتحدث معا ، وستشعر ماكينتك المفكرة بشيء من السرور لاتصالها بماكينتي عن طريق الكلام ، وذلك شيء بديع لا يوفيه بنو البشر حقه من إعجابهم .

الفصل الرابع

محادثة الدكتور جودمان وعالم التشريح سيدراك
عن النفس وعن أشياء أخرى

جودمان — لكن ياعزيزى سيدراك لماذا تقول دائما ملكتى المفكرة ؟ ولماذا لا تقول نفسى فحسب ؟ فذلك التعبير أقصر ولا يقل وضوحا عن الآخر .

سيدراك — ولكنى فى تلك الحالة لن أفهم نفسى ، فأنا أشعر جيدا وأعرف تماما أن الإله قد منحنى ملكة التفكير والتكلم ، ولكنى لا أشعر ولا أعرف ما إذا كان قد منحنى كائنا يدعى بالنفس .

جودمان — حقا إننى عندما أتأمل أرى جيدا أنى لا أعرف أنا أيضا عن ذلك الكائن شيئا . وقد ظللت وقتا طويلا أتمتع بجرأة كافية لأن أظن أنى أعرف ذلك . ولاحظت أن الشعوب الشرقية تطلق على النفس اسما معناه : الحياة . وعلى غرارهم فهم اللاتينيون أول الأمر من كلمة النفس Anima

حياة الحيوان . وعند الإغريق كان يعبر عنها بعبارة « التنفس » . وهذا التنفس هو « النفس » . وقد ترجم اللاتينيون النفثة بكلمة : أسبريتوس «Spiritus» أي الروح . ومن هذا نشأت كلمة اسبري «Esprit» التي معناها الروح ، عند جميع الأمم الحديثة تقريبا . وبما أنه لم يتأت لأحد أن يرى هذه النفس أو هذه الروح ، فقد اصطنع الناس منها كائنا لا يستطيع أحد أن يراه ولا أن يلمسه . وقالوا إنه ثاو في جسمنا دون أن يشغل منه مكانا ، وإنه يحرك أعضاءنا دون أن يلمسها . وأي شيء لم يقولوه ؟ يبدو لي أن جميع كلامنا يقوم على مبهمات . وإني أرى أن لوك الحكيم قد تبين الأخطبوط الذي حاكته هذه المبهمات في كل لغة حول العقل البشري . ومن ثم فإنه لم يكتب أي فصل عن النفس في الكتاب الوحيد الذي أنشأته الإنسانية عن الميتافيزيقية المعقولة . وإذا نطق ، مصادفة ، بتلك الكلمة في بعض المواضع ، فإنها لاتدل عنده إلا على عقلنا .

والواقع أن كل واحد منا يشعر شعوراً تاماً بأن لديه عقلا ، وبأنه يتلقى أفكارا ويجمعها ويحللها ، ولكن لايشعر أحد بأن لديه في داخله كائنا آخر يمنحه الحركة والإحساس والتفكير . وفي الحق إنه من المضحك أن ينطق المرء بكلمة لا يفهمها وأن يقر بوجود كائنات لا يستطيع أن يكون له بها أقل معرفة .

سيدراك — ها نحن أولاء متفقان فعلا على شيء ظل موضوع نزاع طوال كثير من القرون .

جودمان — وإني أعجب بان نكون متفقين .

سيدراك — ليس هذا مدهشاً لأننا نبحث عن الحق بنية صادقة ، لأننا لو كنا على مقاعد المدرسة لتحاججنا كأشخاص رابيليه . ولو كنا نعيش فى قرون الظلمات الفظيعة التى أحاطت بانجلترا زمنا طويلا ، لكان من الممكن أن يعمل أحدنا على إحراق الآخر . غير أننا فى أحد قرون العقل ، وإننا نجد فى يسر ما يبدو لنا أنه هو الحقيقة ونجرؤ على قوله .

جودمان — نعم ، ولكنى أخشى أن تكون هذه الحقيقة شيئاً ضئيلا . لقد فعلنا فى الرياضة الخوارق التى يمكن أن تدهش أبولونيوس وأرشميدس ، وتجعلهما من تلاميذنا . ولكن ماذا وجدنا فى الميتافيزيقا ؟ لقد وجدنا جهلنا .

سيدراك — وهل هذا شيء تافه ؟ إنك توافق على أن الموجود الأعظم قد منحك ملكة للشعور والتفكير كما منح رجليك قوة المشى ، ويديك القدرة على إنجاز كثير من الأعمال ، وأحشاءك القدرة على الهضم ، وقلبك القدرة على دفع الدم إلى شرايينك ، إننا نتلقى منه كل شيء ، ولم نستطع أن نمنح أنفسنا شيئاً ، وإننا



سنجهل دائما الطريقة التى يتخذها سيد الكون لقيادتنا . أما أنا فإنى أشكره على أن علمنى أنى لا أعرف شيئاً عن المبادىء الأولى .

لقد بحث المفكرون دائما عن كيف تؤثر النفس فى الجسم . وكان ينبغى بادئ ذى بدء معرفة ما إذا كان لدينا نفس ، فإما أن يكون الله قد منحنا هذه الهبة ، وإما أن يكون قد أمدنا بشىء معادل لها . ولكن أيا كانت الوسيلة التى استعملها ، فإننا جميعا تحت يده ، إنه سيدنا وهذا هو كل ما أعرفه .

جودمان — ولكن على الأقل قل لى مايدور بخلدك عن النفس ، فقد شرحت أمخاخا ورأيت مضغا وأجنة ، فهل استكشفت فى هذا كله مظهرا من مظاهر النفس .

سيدراك — لم أر أقل شىء من هذا القبيل ، ولم أستطع قط أن أفهم كيف يتأتى لكائن غير مادى وخالد أن يقيم تسعة شهور مختفيا عبثا فى غشاء بين البول والبراز . لقد بدا لى من العسير أن أتصور أن هذه النفس البسيطة المزعومة ، وجدت قبل أن يتكون جسمها ، لأنه ماذا عسى أن تكون قد أدته من الخدمات قبل أن تكون نفسا بشرية ؟ ثم كيف يتخيل المرء أن كائنا بسيطا ، كائنا ميتافيزيقيا ، ينتظر مدى أزلية ، لحظة إحياء قطعة من المادة خلال بضع دقائق ؟ ماذا يصير هذا الكائن غير المعروف لو أن ذلك الجنين الذى يجب أن يمنحه الحياة ، يموت فى بطن أمه ؟

الفصل الخامس

فى اليوم التالى كان المفكرون الثلاثة يتعشون معا . ولما كانوا قد أصبحوا أكثر مرحا بعض الشىء قبيل نهاية العشاء ، كما هى عادة الفلاسفة الذين يتعشون معا ، فقد أخذوا يتلهون بالحديث عن كل التعاسات ، وكل الحماقات ، وكل الفظائع التى تحزن الجنس الحيوانى من أرض الجنوب إلى القطب الشمالى ، ومن مدينة ليما إلى مياكوا . ولا جرم أن هذا التنوع من المستهجنات كان مسليا جداً ، لأن فى معرفته سرورا لا يتيسر للبورجوازيين القابعين فى أماكنهم ، ولا للقسس الذين لا يعرفون سوى أبراج نواقيس أحيائهم ، والذين يحسبون أن بقية الكون قد صنعت على نموذج اكتشينج أللي فى لندن أو شارع لاهوشيت فى باريس .

وهنا قال الدكتور جرو :

— إنى ألاحظ ، زغم التنوع اللامتناهى المتناثر على هذه الكرة ، كلا من الآدميين الذين رأيتهم سواء أكانوا سودا ذوى شعر ، أم سمرا ، أم حمرا أم بيضا من هذا النوع أو ذاك

له على التساوى ساقان وعينان ، ورأس على كتفيه رغم مايقوله القديس أوغسطين الذى يجزم فى عظته السابعة والثلاثين أنه رأى بشراً من غير رؤوس ، وآخرين ليس لهم سوى عين واحدة ، وآخرين ليس لهم إلا ساق واحدة ، أما أكلة اللحوم البشرية ، فإننى أعترف بأنهم موفورو العدد ، بل إن جميع الناس كانوا كذلك .

طالما سئلت عن سكان ذلك البلد الضخم الذى يدعى زيلندة الجديدة الذين هم أشد البرابرة بربرية ، وعما إذا كانوا معمدين ، وكنت أجيب بأنى لا أعرف شيئا وأن ذلك قد يكون ، وأن اليهود الذين هم أشد منهم بربرية ، قد عمدوا مرتين لامرة واحدة ، وهما : تعميد العدالة ، وتعميد المسكن .

جودومان — حقا إنى أعرف هذين التعميدين . ولقد كان لى فى ذلك مناقشات طويلة مع أولئك الذين يحسبون أننا نحن الذين ابتدعنا التعميد . كلا ياسيدى لم نبتدع شيئا ، ولم نفعل أكثر من أننا جمعنا ولفقنا . ولكن قل لى ، أرجوك ، ياسيد جرو ، أى دين من بين الثمانين أو المائة دين التى رأيتها فى رحلتك ، ظهر لك ألطف ، أهو دين النيوزيلنديين أم دين الهوتنتوت .

جرو — هو دين جزيرة تايتى دون أية موازنة ،

فلقد جبت نصف الكرة فلم أر مثل تايتى ودينها ملك الأديان ؛ إن الطبيعة لا تسفر عن وجهها إلا فى تايتى ، أما فى غير ذلك المكان فلم أر سوى أقنعة ، لم أر سوى لصوص محتالين يخدعون حمقى ، ودجالين يسلبون أموال الآخرين ليظفروا بالسلطة ، ويسلبون السلطة ليظفروا بالمال دون عقاب ، ويبيعون لك نسيج العناكب ، لكي يأكلوا هم أطايبنا ، ويبيعونك ثروات وملذات تنالها بعد أن ينقرض الناس لكى تعمل لصالحهم فى أثناء وجودهم .

فنى الحق أنه لايوجد مثل هذا فى جزيرة آيتى أو تايتى . فتلك الجزيرة أكثر تمدينا من جزيرة زيلندة الجديدة ؛ ومن بلاد الكفرة والهوتنتوت . بل أجرؤ على أن أقول ، ومن انجلترا نفسها ، لأن الطبيعة حبتها أرضاً أكثر خصوبة ، ومنحتها شجرة الخبز ، وهى عطية نافعة بقدر ما هى خليقة بالإعجاب ، ولم توهب إلا لبعض جزر بحر الجنوب . وتحتوى تايتى أيضا على كثير من الطيور والخضر والفواكه . ومن ثم فإن الإنسان فى مثل هذا البلد لا يحتاج إلى أن يأكل بنى جنسه . غير أن هناك حاجة أكثر طبيعية وأشد عذوبة ، وأدخل فى باب العمومية ، ودين تايتى يأمر بتلبيتها على رؤوس الأشهاد . ولعل هذا الاحتفال أكثر الاحتفالات الدينية احتراما ، وقد شهدته كما شهده معى كل جهاز

سفينتنا . وليس ذلك من خرافات رجال الإرساليات الدينية كما يوجد أحيانا فى « رسائل العبر والعجائب » للآباء اليسوعيين المحترمين .

ويعمل الدكتور جان يسوروث فى هذه الآونة على إتمام استكشافاتنا فى نصف الكرة الجنوبى . ولقد صحبت دائما السيد بانكس ، ذلك الشاب الحاذق بالاعتبار الذى خصص وقته وثروته للملاحظة الطبيعة على مقربة من القطب الجنوبى ، بينما كان السيدان داوكينس ، وورود فى طريق عودتهما من تدمر وبعلبك حيث كانا يجريان الحفر عن أقدم آثار الفنون ، وكان السيد هاملتون يعلم النابوليين الدهشين ، التاريخ الطبيعى لبركانهم ڤيزوف . وأخيرا رأيت مع السادة بانكس وسولاندير وآخرين غيرهما : ما كنت أريد أن أقصه عليكما لولا إفراطه فى جرح الحياء الأوربى ، ولكنى أعتقد أنكما قد أدركتماه عن طريق الحدس .

الفصل السابع

أثار الفلاسفة الثلاثة فى اليوم التالى المسألة العظمى وهى : ماهو الدافع الأول لجميع أعمال بنى الإنسان ؟ فأما جودمان الذى كان قد رأى بلادا كثيرة ، فقد قال إنه المال ، وأما سيدراك فقد أكد أنه مقعد مثقوب[1] وهنا عرت الضيفين دهشة بالغة . وهاك كيف برهن سيدراك العالم على فكرته فقال :

— لاحظت دائماً أن أمور هذا العالم تتعلق برأى وإرادة شخصية أساسية سواء أكانت هى الملك أم رئيس الوزارة أم رئيس الإدارة ، وهذا الرأى وتلك الإرادة هما النتيجة المباشرة للطريقة التى بها تتسرب الأرواح الحيوانية إلى المخيخ ، ومن هناك إلى النخاع المستطيل ، وهذه الأرواح الحيوانية تتعلق بدورة الدم ، وهذا الدم يتعلق بتكوين السائل الغذائى الأبيض ، وهذا السائل يتكون من ثنايا الصفاق المرتبطة بالأمعاء بوساطة خيوط جد دقيقة ،

(١) المقعد المثقوب هو مقعد ذو عجل كان يستعمل فى أورباق القصور فى الماضية لقضاء الحاجة الطبيعية (المترجم)

وهذه الأمعاء ، إذا كان من المسموح لى أن أقول ذلك ، مليئة بالبراز ، وهى على الرغم من الجلود الثلاثة القوية التى تحيط بكل واحدة منها ، مثقبة كالغربال ، لأن كل شىء مكشوف فى الطبيعة ، ولا توجد حبة من الرمل ليس بها أكثر من خمسمائة من المسام ، وكان من الممكن إيلاج ألف إبرة فى كرة المدفع لو وجدت إبر دقيقة وقوية بالقدر الكافى .

وإذا كان الأمر كذلك ، فماذا يحدث للمرء المصاب بالإمساك ؟ إن أدق عناصره البرازية تمتزج بذلك السائل الأبيض ، ومن هنا تنتشر فى جسمه . وعندما تغمر تلك العناصر قنوات الشخص السوداوى وغدده ، يصير سوء مزاجه نوعا من الوحشية ويتحول بياض عينيه إلى قتوم حاد ، وتلتصق كل من شفتيه بالأخرى ، ويختلط لونه ويبدو كأنه يهددك ، فلا تدن منه ، وإذا كان وزير دولة ، فاحذر أن تقدم إليه طلبا وهو على هذه الحال ، فإنه لا ينظر إلى كل ورقة يراها إلا على أنها عون له يود أن يستعمله حسب عادة أهل أوربا القديمة الفظيعة ، فاستعلم أولا من خادمه المقرب عما إذا كان سيادته قد تبرز هذا الصباح أم لا .

لاريب أن ذلك أهم مما يظن ، لأن الإمساك قد أنتج فى بعض الأحايين أشد المناظر دموية . ومن آيات ذلك أن جدى

الذى توفى فى المائة من عمره كان صيدليا لكرومويل ، وكثيراً ماقص على أن كرومويل لم يكن قد تبرز منذ ثمانية أيام عندما قطع رأس ملكه .

ويعرف كل الذين لهم قليل من الدراية بشؤون القارة ، أنه طالما أنذر الناس الدوق هنرى دى جيز ، ألا يغضب الملك هنرى الثالث فى الشتاء إبان هبوب الريح الشمالية الشرقية ، لأن هذا الملك لم يكن فى ذلك الحين من العام يتبرز إلا بصعوبة كبيرة ، وكانت تلك المواد تصعد إلى رأسه ، فيصير إذ ذاك قادراً على كل أنواع العنف ، ولم يصدق الدوق دى جيز نصيحة حكيمة إلى هذا الحد ، وإذن فماذا حدث له ؟ لقد قتل هو وأخوه .

كان الملك شارل التاسع ، سلف هنرى الثالث ، أشد رجال مملكته إصابة بالإمساك . وكانت قنوات أمعائه منسدة إلى حد أن دمه انتهى بأن انبجس من مسام جسمه . ويعرف المطلعون أن هذا المزاج كان أحد الأسباب الرئيسية لمذبحة سان بارتيليمى .

وعلى العكس من ذلك الأشخاص السمان ذوو الأمعاء المخملية التى تؤدى وظائفها فى كل صباح ، أولئك الأشخاص المحظوظون من الطبيعة ودعاء محبوبون ظرفاء ، سباقون إلى فعل الخير رحماء ذوو مروءة .

بلغت هذه المسألة بوجهيها أقصى درجة من الأهمية إلى حد أن الإسهال فى أكثر الأحايين ، يجعل المرء جبانا وأن الدسنتاريا تنتزع منه الشجاعة . ولهذا لاتعرض على رجل أضعفه الأرق والحمى البطيئة ، وكثرة التبرز ، أن يذهب لمهاجمة حصن من حصون الأعداء فى رائعة النهار . ومن ثم فإنى لا أستطيع أن أصدق أن كل جيشنا قد أصيب بالدسنتاريا فى موقعة آزانكور كما يقال ، وإنما أعتقد أن بضعة جنود قد أصيبوا بالإسهال لأنهم قد أفرطوا فى أكل عنب ردىء فى الطريق وقد قال المؤرخون إن كل الجند قاتلوا مكشوفى الأدبار ، وإنهم لكيلا يظهروها للفرنسيين إذا أدبروا ، قد سحقوهم ، على حد تعبير دانيال اليسوعى .

وهذا بالضبط هو النحو الذى يكتب عليه التاريخ :

وعلى هذا النحو الزائف قد ردد جميع الفرنسيين خلفا عن سلف أن ملكنا العظيم هنرى الثالث قد أمر بأن يسلم إليه ستة من برجوازيى كاليه وفى أعناقهم الحبال لشنقهم لأنهم جرءوا على مقاومة حصار المدينة فى شجاعة ، وأن زوجته الملكة ظفرت بعد لأى بالعفو عنهم بوساطة دموعها . ولا ريب أن أولئك الروائيين لايعرفون أن العادة فى ذلك الزمن البربرى كانت تقضى

بأن يتقدم البرجوازيون أمام قاهرهم والحبال حول أعناقهم إذا كانوا قد أوقفوه وقتا طويلا أمام مدينة قليلة الأهمية . ولكن من المؤكد أن إدوارد الكريم لم تكن لديه أية رغبة فى أن يشنق رهائنه الستة الذين غمرهم بالهدايا والألقاب . الحق أننى سئمت كل الحماقات التى أفعم بها كثير من أدعياء المؤرخين مؤلفاتهم التاريخية ومن كل المطامع التى أساءوا وصفها إلى حد بعيد ، وأننى أحب أن أصدق أن جدعون قد أحرز انتصارا عظيما بثلاثمائة جرة بقدر ما أصدق هذه المؤلفات . والحمد لله على أنى لم أعد أقرأ سوى التاريخ الطبيعى بشرط ألا يضجرنى أمثال بورنيت ووستون ، وورد وورد ، بنظرياتهم الملعونة ، وألا يقول لى ماييه إن بحر ايرلاندا قد أنتج جبل القوقاز ، وإن كرتنا من زجاج ، وبشرط ألا يقدم إلى شجيرات البردى القصيرة على أنها حيوانات نهمة ، والمرجان على أنه حشرة ، وبشرط ألا يقدم إلى الدجالون فى وقاحة ، أحلامهم على أنها حقائق . وإننى أحترم أكثر من هذا ، نظاما حسنا يحتفظ بأمزجتى فى حالة اعتدال ، ويجلب إلى هضما جيدا ، ونوما هادئا . إذ يقول لى : اشرب ساخنا حين يتساقط الجليد ، واشرب باردا حين يشتد الحر ، ولا تفرط فى أى شىء كثرة ولاقلة ، واهضم ، ونم ، وابتهج ، واسخر مما عدا ذلك .

«الحب الذاتى» أو الاعتزاز بالنفس

كان هناك متسول من ضواحى مدريد يطلب الإحسان فى لهجة نبيلة . له فقال أحد المارة :

— ألست خجلا من مزاولة هذه المهنة الوضيعة وأنت تستطيع العمل ؟

فأجابه المتسول قائلا :

— سيدى إنى أسألك المال ولا أسألك النصائح .

ثم أدار له ظهره محتفظا بكل كرامته القشتالية . كان صعلوكا عجيبا ذلك المولى لجرح غروره من أجل شىء ضئيل . إنه كان يطلب الإحسان بدافع من حب الذات ، وهو لا يحتمل اللوم بدافع نوع آخر من حب الذات .

التقى أحد المتنقلين بين ربوع الهند من رجال الإرساليات بفقير مكبل بالسلاسل ، عار كأنه قرد ، مبنطح على الأرض وكان يتلقى الجلد برضاه من أجل خطايا مواطنيه الهنود الذين كانوا يقدمون إليه بعض دريهمات البلاد ، وقال أحد المشاهدين :

— ياله من عزوف عن حب الذات !

فأجاب الفقير قائلا :

— عزوف عن حب الذات ! اعلم أنى لم أتلق الجلد على

ظهرى فى هذا العالم إلا لكى أرده إليكم فى العالم الآخر عندما تكونون جيادا وأكون أنا فارسا .

إن أولئك الذين قالوا إن حب ذواتنا هو أساس عواطفنا وكل أعمالنا ، كانوا إذن جد محقين فى الهند وفى إسبانيا وفى كل الأرض الصالحة للسكن . ولما كان المؤلفون لا يكتبون لكى يثبتوا لبنى البشر أن لهم وجوداً ، فإنهم ليسوا فى حاجة إلى أن يثبتوا لهم أن عندهم حب الذات . هذا الحب الذاتى هو أداة احتفاظنا بأنفسنا . وهو يشبه أداة بقاء النوع : إنهـــا مثله ضرورية لنا وعزيزة علينا ، إنها تسرنا ويتحتم علينا إخفاؤها .

« المســاواة »

ماذا يجب على الكلب إزاء الكلب ، وعلى الجواد إزاء الجواد ؟ لا شيء ، فلا يتعلق أى حيوان بشبيهه . ولكن إذا كان الإنسان قد تلقى الشعاع الإلهى الذى يدعى بالعقل فماذا كانت ثمرة هذه الموهبة بالنسبة إليه ؟ هى كونه عبدا فى جميع بقاع الأرض تقريبا .

ولو أن هذه الأرض كانت كما يبدو أنه يجب أن تكون ، أى لو أن الإنسان قد وجد عليها فى كل مكان قوتا ميسورا ومؤكدا ، ومناخا ملائما لطبيعته لكانت استحالة خضوع إنسان لآخر من

الأمور الجلية . فلو أن هذه الكرة كانت مليئة بالثمار الناضجة ، ولو أن الهواء الذى يجب أن يساهم فى حياتنا ، لا يصيبنا بالأمراض والموت ، ولو أن الإنسان لم تكن لديه حاجات أخرى غير حاجات الأوعال والتيوس البرية ، ولا مسكن غير مساكنها ، لما كان حينئذ لجنكيزخان وتيمورلنك وأمثالهما من خدم سوى أبنائهم الذين سيكون لديهم إذ ذاك من البر بهم ما يجعلهم يعاونونهم فى شيخوختهم .

وفى هذه الحالة الطبيعية التى تستمتع بها كل ذوات الأربع والطيور والزواحف ، كان يمكن للإنسان أن يعيش سعيداً مثلها ، وكانت السيطرة حينئذ تصير وهما وشيئا غير معقول لا يفكر فيه أحد ، لأنه لماذا يبحث المرء عن خدم إذا لم يكن فى حاجة إلى أية خدمه ؟

فى هذه الحال لو جال بعقل فرد ذى رأس طغيانى وذراع قوية أن يخضع جارا له أقل منه قوة ، لكان الأمر مستحيلا ، لأن المضطهد سيكون إذ ذاك على بعد مائة مرحلة قبل أن يتخذ المضطهد إجراءاته .

وإذن فلو كان كل بنى البشر بلا حاجات لكانوا بالضرورة متساوين ، إذ أن البأساء اللاصقة بنوعنا هى التى تخضع إنسانا

لإنسان آخر ، فليس عدم المساواة هو الشقاء الفعلى ، وإنما الشقاء هو التبعية . نعم إن من ضآلة الأهمية أن يدعى إنسان بصاحب الرفعة أو يدعى آخر بصاحب القداسة . ولكن المشقة تنحصر فى أن يضطر المرء إلى خدمة هذا أو ذاك .

لنفترض أن أسرة وفيرة العدد زرعت أرضا جيدة ، وكانت هناك أسرتان صغيرتان بجاورتان لها ولديهما حقول ضئيلة الإنتاج عسيرة الاستغلال ، فى هذه الحالة لا بد من أحد أمرين ، فإما أن تخدم الأسرتان الفقيرتان الأسرة الثرية ، وإما أن تذبحها ، وذلك أمر واضح لا عسر فيه . وهنا نفرض أن إحدى الأسرتين الفقيرتين قدمت أذرعة أبنائها إلى الأسرة الثرية لكى تحصل على قوتها ، وأن الأخرى قاتلت وانهزمت ، فتكون الأسرة العاملة هى أصل الخدم وذوى الأشغال اليدوية ، وتكون الأخرى المنهزمة أصل العبيد .

من المستحيل فى كرتنا التعسة ألا يكون بنو البشر الذين يحيون فى مجتمع واحد منقسمين إلى طبقتين ، إحداهما مضطهدة والأخرى مضطهدة ، وهاتان الطبقتان تنقسمان بدورهما إلى ألف طبقة ، وهذا الألف سيكون بين طبقاته أيضا فروق مختلفة .

ليس كل المضطهدين تعساء على الإطلاق ، فأكثرهم نشأوا على هذه الحالة ، والعمل المتواصل يمنعهم من شدة الإحساس بوضعهم ، ولكن حين يشعرون به ، تنشأ الحروب ، ككفاح الحزب الشعبي ضد حزب مجلس الشيوخ بروما ، وكتمرد القرويين فى ألمانيا وانجلترا وفرنسا . وكل تلك الحروب تنتهى قريبا أو بعيدا بإرضاء الشعب ، لأن الأقوياء لديهم المال . والمال سيد كل شيء فى الدولة ، وأقول فى الدولة لأن الأمر ليس كذلك بين وطن وآخر . فالوطن الذى يجيد استخدام الحديد أكثر من غيره ، هو الذى يخضع دائما لنيره أكثر الأوطان ذهبا وأقلها شجاعة .

كل إنسان يولد مع ميل عنيف إلى السيطرة والثروة والسرور ، ومع انعطاف نحو الكسل ؛ وبالتالى إن كل إنسان يود أن يظفر بمال الآخرين ونسائهم وبناتهم ، وأن يكون سيدهم وأن يخضعهم لكل أهوائه وألا يعمل شيئا ، أو على الأقل لا يعمل الأشياء اللذيذة . فأنت ترى جيداً أنه من المستحيل مع هذه الاستعدادات الجميلة أن يكون الناس متساوين ، كما أنه من المستحيل أن يوجد واعظان أو أستاذان من أساتذة اللاهوت ثم لا يتبادلان الحسد فيما بينهما .

لا يستطيع النوع البشرى وهو على ما هو عليه ، أن يحيا إلا إذا وجد عدد غير متناه من البشر النافعين الذين لا يملكون شيئا ألبتة . لأنه من المؤكد أن الرجل الميسور لا يترك أرضه لكى يأتى فيحرث أرضك ، وإذا كنت فى حاجة إلى حذاء فليس أحد رجال القضاء هو الذى سيصنعه لك . وإذن فالمساواة فى الوقت ذاته أكثر الأشياء طبيعية وأشدها وهما .

ولما كان بنو البشر متطرفين فى كل شىء عندما يستطيعون ذلك ، فقد غالوا فى عدم المساواة ، وقد زعم الناس فى بعض البلاد أنه ليس مسموحا لأحد المواطنين بأن يخرج من المنطقة التى أنشأته المصادفة فيها . ومعنى هذا القانون فى وضوح ، هو ما يلى : إن هذا البلد ردىء وسيء الحكم إلى حد أننا نحظر على كل فرد أن يخرج منه جميع من فيه .

اعملوا أفضل من ذلك ، وأوجدوا لدى رعاياكم الرغبة فى بلادكم ، ولدى الأجانب أن يأتوا إليها .

كل إنسان فى أعماق قلبه له الحق فى أن يحسب نفسه متساويا تماما مع غيره من بنى البشر . . غير أنه لا ينجم عن ذلك أن يجوز لطاهى أحد الكرادلة أن يأمر سيده بأن يعد له طعام الغداء ، ولكن الطاهى يستطيع أن يقول : « إننى إنسان كسيدى

ولدت مثله باكيا ، وهو سيموت مثلى وسط هموم وطقوس دينية واحدة . ونحن كلانا نؤدى ذات الوظائف الحيوانية ، ولو استولى الأتراك على روما ، وصرت حينئذ كاردينالا وسيدى طاهيا ، لاتخذته لخدمتى . » نعم إن هذا الحديث معقول وعادل . ولكن إلى أن يستولى الأتراك على روما ، ينبغى أن يؤدى الطاهى واجبه ، أو يفسد كل مجتمع بشرى .

أما حين يتعلق الأمر برجل ليس طاهيا لكاردينال ، ولا يقوم بأى منصب آخر من مناصب الدولة ، أى بشخص لا يرتبط بشىء ولكنه غاضب من أن يرى نفسه يستقبل فى كل مكان بمظهر الاستكبار أو الاحتقار ، وهو يرى فى وضوح أن عددا من ذوى المناصب الدينية ، ليس لديهم من التعليم ولا من سرعة الخاطر ولا من الفضيلة أكثر مما عنده ، يضجر من أن يجد نفسه أحيانا فى حجرة انتظارهم ، فما على مثل هذا الرجل أن يفعل ؟ ليس عليه إلا أن ينصرف .

عن الحرية

ا — هاهى ذى بطارية من المدافع تدوى فى آذاننا، فهل أنت حر فى أن تسمعها أو لا تسمعها؟

ب — أغلب الظن أنى لا أستطيع أن أمنع نفسى من سماعها.

ا — أتريد أن يقتلع هذا المدفع رأسك ورأسى زوجتك وابنتك اللتين تسيران معك؟

ب — أى عرض ذلك الذى تعرضه على؟ إننى مادمت فى رشدى، لاأستطيع أن أريد شيئا كهذا، فذلك أمر مستحيل على.

ا — هذا حسن، إنك تسمع بالضرورة هذا المدفع، وتريد بالضرورة ألا تموت أنت أو أسرتك بطلقة مدفع فى أثناء نزهتكم، وأنت لاتملك القدرة على عدم سماعه، ولا القدرة على إرادة البقاء هنا.

ب — ذلك واضح (١)

(١) هناك مؤلف ضعيف العقل، كتب فى سفر صغير مؤدب أمين وعلى الأخص حسن الاستدلال يعترض فيه بأنه لو أمر الأمير «ب» أن يبقى معرضا =

ا — وبناء على ذلك خطوت نحو ثلاثين خطوة لكى تكون بمأمن من المدفع ، فهل كان لديك من القدرة ماجعلك تسير معى هذه الخطوات القليلة ؟

ب — ذلك واضح أيضا .

ا — ولو أنك كنت مشلولا ، لما استطعت أن تتجنب التعرض لهذه البطارية ، ولما استطعت أن تفوز بالقدرة على وجودك حيث أنت الآن ، ولسمعت وتلقيت بالضرورة إحدى طلقات المدفع ولمت بالضرورة ؟

ب — لاشيء أحق من ذلك .

ا — وإذن فيم تتألف حريتك إذا لم يكن ذلك من القدرة التى زاولها شخصك فى أن تفعل ماكانت إرادتك

للمدفع ، لبقى . نعم بلا ريب ، لو أنه كان لديه من الشجاعة أو بالحرى من خوف الخجل أكثر مما لديه من حب الحياة كما يحدث فى أغلب الأحايين. فأولا يتعلق الأمر هنا بحالة مختلفة عن ذلك كل الاختلاف ، وثانيا عندما تغلب غريزة الخوف من الخجل على غريزة حفظ الذات ، فإن المرء يكون لديه من ضرورة البقاء معرضا للمدفع بمقدار مالديه من ضرورة الفرار حين لايكون خجلا من الفرار . ولقد كان لدى ضعيف العقل من الضرورة ماجعله يقدم اعتراضات مضحكة وينطق بالشتائم ، ولقد أحسن الفلاسفة بضرورة السخرية منه قليلا مع الصفح عنه (تعقيب من فولتير فى سنة ١٧٦٩) .

تتطلبه بضرورة مطلقة ؟

ب ــ إنك تحيرنى ، أليست الحرية إذن شيئا آخر غير استطاعتى فعل ماأريد ؟

ا ــ تأمل فى ذلك ، وانظر فيما إذا كان من الممكن أن تفهم الحرية على نحو آخر ؟

ب ــ فى هذه الحالة يكون كلبى الصائد حرا مثلى ، فلديه بالضرورة إرادة الجرى عندما يرى أرنبا بريا ، والقدرة على الجرى إذا لم تكن ساقاه مريضتين . وإذن فليس لدى شىء فوق ما للكلب ، وأنت بهذا تنزلنى منزلة الحيوانات .

ا ــ ها هى ذى السفسطة الواهية الصادرة عن السوفسطائيين الواهين الذين علموك . ها أنت ذا فى أشد حالات المرض لكونك حرا ككلبك ! ومع ذلك أفلست تشبه كلبك فى كثير من الأشياء ؟ أو ليس الجوع والظمأ والسهر والنوم والحواس الخمس مشتركة بينك وبينه ؟ أو تريد أن تشم بشىء آخر غير الأنف ؟ ولماذا تريد أن تظفر بالحرية على نحو آخر غيره ؟

ب ــ ولكن لى نفسا تتعقل كثيرا ، وكلبى لا يكاد يتعقل .

وليس لديه تقريبا سوى فكر بسيطة ، أما أنا فعندي ألف فكرة ميتافيزيقية .

ا — هذا حسن ! إنك حر أكثر منه ألف مرة ، أى أن لك قدرة على التفكير أكثر منه ألف مرة ، ولكنك لست حراً على نحو آخر غيره .

ب — ماذا ! ألست حرا فى إرادة ماأريد ؟

ا — ماذا تقصد من هذا ؟

ب — إنى أقصد مايقصده الناس جميعا . ألا يقال فى كل يوم : « إن الإرادات حرة ؟ »

ا — ليس المثل شرحا ، فوضح رأيك أكثر من ذلك .

ب — إنى أقصد أنى حر فى أن أريد مايحلو لى .

ا — اسمح لى أن أقول لك إن هذا لا معنى له . أفلا ترى أنه من المضحك أن يقال : « أريد أن أريد » ؟ إنك تريد بالضرورة ، ولكن فى حدود نتائج الأفكار التى تتمثل فى عقلك . أتريد أن تتزوج ، أنعم أم لا ؟

ب — ولكن لو قلت لك إنى لا أريد أحد الأمرين ولا الآخر .

ا — إنك فى تلك الحالة تجيب كذلك الذى يقول : « إن

البعض يحسبون أن الكاردينال مازاران قد مات ، والآخرين يحسبون أنه لا يزال حيا ، وأنا لا أحسب هذا ولا ذاك . »

ب ــ حسن ! أريد أن أتزوج .

ا ــ هذه إجابة ، ولم تريد أن تتزوج ؟

ب ــ لأنى أحب فتاة جميلة وديعة حسنة التربية ، على شيء من الثراء ، تحسن الغناء ، ووالداها شريفان ، ويبدو لى أنها تحبنى وأنى موضع الترحيب من أسرتها .

ا ــ ذلك سبب ، فأنت ترى أنك لا تستطيع بلا سبب . وأنا أعلن لك أنك حر فى أن تتزوج ، أى أن لديك القدرة على أن توقع العقد .

ب ــ كيف ! ألا أستطيع أن أريد بلا سبب ؟ وفى هذه الحالة ماذا يكون مصير ذلك المثل اللاتينى « Sit pro ratione voluntas » أى إن أرادتى هى باعثى ، وإنى أريد لأنى أريد ؟

ا ــ إن ذلك غير معقول ياصديقى العزيز إذ فى هذه الحال تكون لديك نتيجة بلا علة .

ب ــ ماذا ! أحين ألعب لعبة العدد الزوجى أو الفردى يكون لدى سبب لاختيار الزوجى بدل الفردى ؟

ا — نعم بلا ريب

ب — وما ذلك السبب من فضلك ؟

ا — ذلك لأن فكرة الزوجى قد مثلت فى عقلك دون الفكرة المعارضة . إنه يكون من الغريب أن توجد حالات تريد فيها لأنه يوجد سبب للإرادة ، وتوجد بعض حالات تريد فيها بلا سبب . من الجلى أنك حين تريد أن تتزوج تشعر فى ذلك بالباعث المسيطر . ولكنك لا تشعر به عندما تلعب اللعبة الزوجية أو الفردية ، ومع ذلك فينبغى أن يكون هناك باعث .

ب — ولكن مرة أخرى ، ألست حرا إذن ؟ .

ا — ليست إرادتك حرة ولكن أعمالك حرة ، إنك حر فى أن تعمل عندما تكون لديك القدرة على أن تعمل .

ب — ولكن كل الكتب التى قرأتها عن حرية عدم الاكتراث . . .

ا — إنها حماقات ، فليس هناك مايدعى بحرية عدم الاكتراث ، إذ تلك كلمة معدومة المعنى ابتدعها قوم لا تكاد سلامة الفطرة توجد لديهم .

———

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهة (ميدان الجيش)

ملتزم الطبع والنشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة ت ٤١٤٥٥

أصدرت من مشروع الألف كتاب

١ - الحاج مراد
٢ - العلم يعيد بناء العالم
٣ - مدخل إلى علم الآثار
٤ - طبقات المجتمع
٥ - قصة التجارة الدولية
٦ - الصحافة فى العالم
٧ - مناطق الهجرة فى العالم
٨ - علم الاجتماع
٩ - الاستعمار الحديث
١٠ - رواد الطب
١١ - الكيمياء الحديثة
١٢ - اقتصاديات الزراعة
١٣ - كولومبا
١٤ - ناس من دبلن
١٥ - الرومانتيكية
١٦ - حياة النبات
١٧ - قصص من أندريه موروا
١٨ - الإشعاع الذرى والحياة
١٩ - متعة الرياضى
٢٠ - فولتير

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع السنزهه (ميدان الجيش)